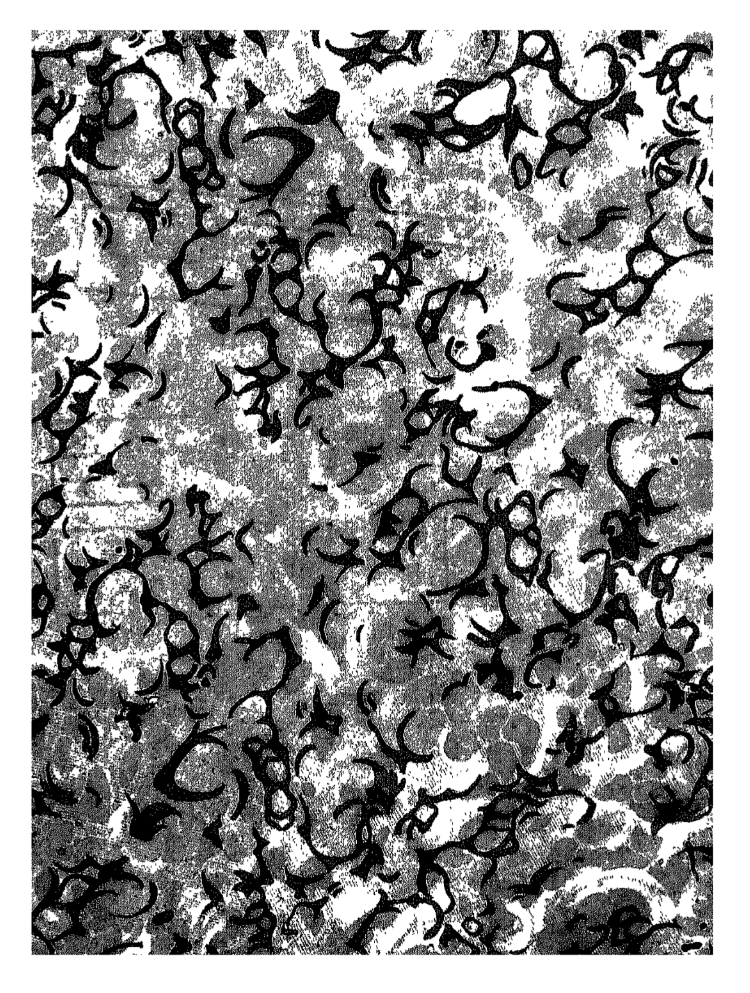
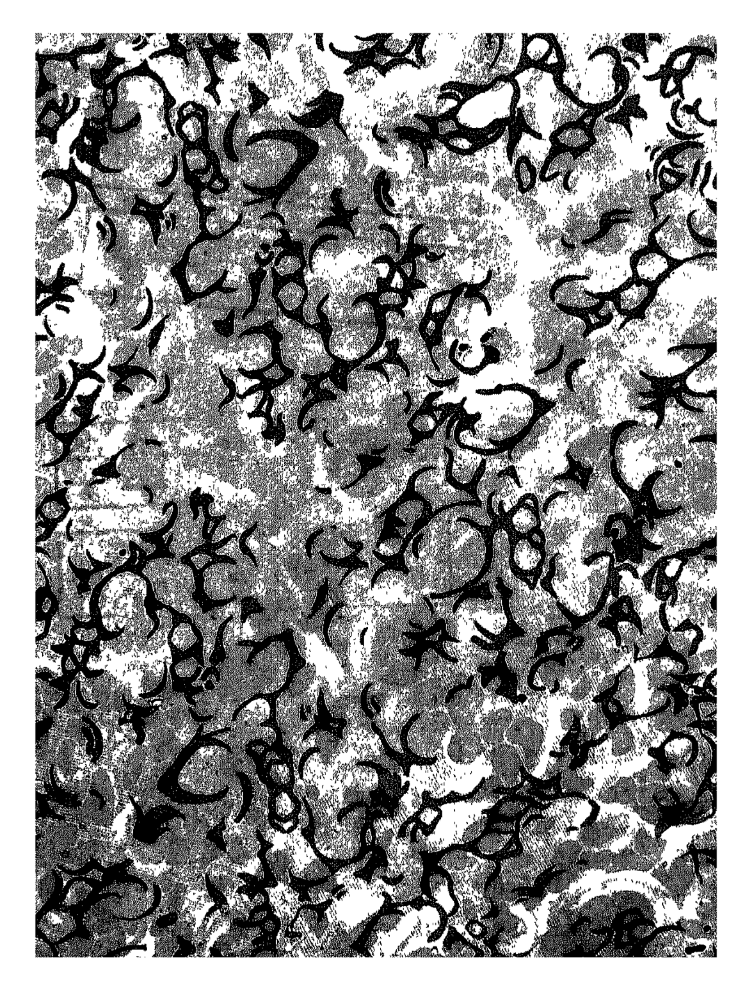






مبادئ الفلسفة

ألفه

ا . س . رابوپرت . دكتور فى الفلسفة

ترجمه من الانجليزية الى العربية

أحمد أمين

القاضى بالمحاكم الشرعية

الطبعة الثانية — سنة ١٩٢٢

راجعه ونقحه أمين افندى مرسى قنديل المدرس بالمدرسة العباسية باسكندرية
وعبد الحميد افندى العبادى المدرس بمدرسة القضاء الشرعى

(مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر)

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

أتى على العرب حين من الدهر كانت لغتهم تكفى لحاجاتهم . فلهم منها أسماء ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون وما يفكرون ، فان لم يجدوا نقلوا عن غيرهم أو خلقوا خلقاً جديداً ، ساروا مع زمانهم فى تشريعهم وفى علومهم وفى لسانهم وفى نظمهم ، أن أحسوا ان أمة سبقتهم فى علم أنفوا أن يروا لغتهم عاطلة من حليه ، فأسرعوا فى ترجمته ، وسدوا نقصا شعروا به ، وان رأوا معنى جديداً أو مخترعا جديداً وضعوا له لفظا جديداً وأدخلوه فى معاجمهم وذكره العلماء فى كتبهم ، وان انتجت حالتهم الاجتماعية أنواعا من المعاملات جديدة وانماطا من الجرائم لم يكونوا يعرفونها. شرعوا لها تشريعاً جديداً يتفق مع الحوادث وقالوا كما قال عمر بن عبد العزيز « يحدث للناس من الأقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور » وكما قال زياد « وقد أحدثتم

احداثا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة » فكانوا والزمان فرسى رهان يعدوان جنبا لجنب ، علما منهم بأن لا نجاح لامة فى الحياة مالم تعدل حياتها على وفق ما يحيط بها

ثم وقفوا واستمر الزمن يعدو ، وكلما طال وقوفهم زاد البعد ، و بعدت مسافة الخلف ، — وقفوا سبعة قرون أو تزيد ، تغير فيها مفهوم الكلمات ، وزادت المعانى والمخترعات ، ولا تزال معاجم لغتهم مما وضع منذ قرون ، امثال قاموس « الفيروز ابادى » و « لسان العرب » مما ألف لزمن غير زمانهم ، فى موقف غير موقفهم ، والامم الحية لا ترضى أن يكون لها فى نصف قرنها الحالى معجم الف فى نصف قرنها الماضى .

اختلفت أنواع المعيشة وأصبح بعض ما كان يعد حسنا قبيحاً والعكس . وتغيرت أشكال المعاملات ، وهم أمام ذلك جامدون . اخترعت علوم جديدة ، وأبطلت نظريات قديمة واستكشفت قضايا وقوانين غيرت وجه العلم وحولت مجرى الحياة وهم يأبون الا أن تكون الكتب كتب الأقدمين والنظريات نظريات الاقدمين ، والرأى رأى الاقدمين . نعم ينبغى أن ننظر فى القديم ، ولكن ليس الا لنتخذ منه دعامة للتجديد .

فما أحوجنا الى نهضة تنبهنا من سباتنا العميق ، وتغير مجرى حياتنا ، وتفتح عيوننا للبحث والنظر ، وتطلق الفكر من عنانه ، فيبحث ويعتقد ما يراه الحق ، وتمدنا بما وصل اليه الغرب فنستأنس ببحثه ، ونستعين به فى وضع ما يتفق مع بيئتنا ودينا ونظمنا الاجتماعية وحالتنا العقلية

وقد عثرت على كتاب فى « مبادئ الفلسفة » قسمه المؤلف الى قسمين : أبان فى القسم الاول موضوع الفلسفة وفروعها وذكر كلمة عن كل فرع وختمه بفصل فى تاريخ الفلسفة من مبدأ نشأته الى الآن — وذكر فى القسم الثانى النظريات الفلسفية المعروضة على بساط البحث وحكى باختصار المذاهب المختلفة فيها

والكتاب يقدم للقارىء صورة مصغرة للآراء الفلسفية قديمها والحديث ، ويحدد معنى (الفلسفة) وموضوعها ، تلك الكلمة التى يكاد يختلف الناس عندنا فى فهم معانيها بقدر عدد رؤوسهم — ولم يأل جهداً فى تبسيط الموضوع والتغلب على صعوباته ، ليكون سهل التناول لجمهور المتعلمين .

رأيت أن أنقله الى العربية ، وأغرانى على ذلك صغر حجمه وطرافة موضوعه عند قراء العربية وبذل المؤلف

جهده لتسهيل الموضوع . حتى اذا بدأت فى ترجمته أحسست بصعوبته . وقد لا يعلم قدر ما لاقيت من عناء الا من حاول ترجمة كتاب كهذا فى موضوع دقيق قد ملىء بالاصطلاحات الفنية ثم لا يجد لها مقابلا فى العربية .

راعيت الامانة فى النقل جهد المستطاع فحافظت على ترتيب المؤلف ومعانيه وتسلسلها ولم أتصرف الا عند الضرورة القصوى — وقد استعملت فى الترجمة الاصطلاحات العربية ما وجدت الى ذلك سبيلا فان لم اعثر بعد البحث على اصطلاح عربى يقابل الاصطلاح الانجليزى وضعت كلمة من عندى رأيت أنها أقرب للدلالة على المعنى .

ولست أنكر أن فى بعض ما ترجمت غموضاً — وأرجو ألا يكون كثيراً — وسبب ذلك اما صعوبة الموضوع وغموض الأصل ، أو التغالى فى المحافظة على معانى المؤلف أو أن الاصطلاحات التى استعملتها لم تؤلف ألفها فى لغة الاصل .

وقد رأيت أن المؤلف لم يذكر كلمة ما عن الفلسفة العربية وتاريخها فرأيت اتماما للفائدة أن اذكر كلمة فى ذلك أقرنها بما كتبه المؤلف عن تاريخ الفلسفة . ووضعت على ما كتب المؤلف كلمات فى ذيل الصحيفة قد أشرح بها غامضاً أو أبين مصطلحاً .

وذيلت الكتاب بترجمة صغيرة لاشهر من ورد ذكرهم في الكتاب أبين فيها جنسه وتاريخ حياته وربما ذكرت بعض مبادئه وختمت ذلك بقائمة للالفاظ الانجليزية وما يقابلها من العربية

وهنا أتقدم بالشكر للجنتنا المباركة « لجنة التأليف والترجمة والنشر » على ما بذلت من المساعدة في اخراج الكتاب واخص بالذكر صديقي امين افندى مرسى قنديل وعبد الحميد افندى العبادى فاليهما يرجع الفضل في مراجعة الكتاب وتنقيحه وارشادى الى ما غمض من معانيه

وانى اشكر كل من يتنبه لخطأ في الكتاب فيرشدنى اليه ، والله اسأل ان ينفع به ويجعله طليعة كتب واسعة تظهر في هذا الموضوع النافع

مايو سنة ١٩١٨ — احمد امين

مقدمة المؤلف

الغرض من هذا الكتاب أن يكون بين ايدى المبتدئين في الفلسفة شبه دليل مدرسي يقفون منه على مسائل الفلسفة وما وضع لها من حل. وقد كان مجرد عرض المسائل الفلسفية اهم في نظري من مراعاة تاريخها ، ولكن لما كان تتابع المذاهب في المسائل متمشياً مع تدرج الفكر في الرقى صار من الطبيعى مراعاة الترتيب الزمنى لاقسام الموضوع

وبالضرورة قد اكتفينا في هذا الموجز الذى يستغرق اقل من ١٢٨ صفحة بمجرد ذكر كثير من المسائل يمكن ان تبسط فى رسائل خاصة ؛ غير انا نرجو ان نكون قد ذكرنا كل ماهو ضرورى فى كتاب كهذا يعد « مقدمة للفلسفة » يجمع الى صغر الحجم ودقة العبارة الوضوح والالمام بأطراف الموضوع هـذا مع الاخلاص للحق وهو آخر دروس الفلسفة وخيرها ؟

فبراير سنة ١٩٠٤ ا . س . ر .

فهرس الكتاب

الباب الاول

فى الفلســـــفة وفروعها

الفصل الاول

«تمهيد»

شاع بين الناس أن الفلسفة موضوع لا تتناوله الا عقول خاصة ، وأنها لا تلذ الا لقوم نظريين لم يروا فى الحياة خيراً من أن يجهدوا عقولهم فى حل مسائل هى الى الخيال أقرب منها الى الحقيقة ، وأنها تبحث فى خيالات عقيمة لا ينبنى عليها فى الحياة عمل — وانهم فى زعمهم لمخطئون.

لم يرفع الانسان عن مستوى الحيوان الا فكره وقوته العاقلة ، فالحيوان يرى ويسمع بل ويتذكر ، ولكنه لا يستخدم هذه القوى الا فى حاجاته الوقتية . أما الانسان فيرى ظواهر الكون على اختلاف أنواعها فيتصورها ويكون له فيها رأياً ، ثم يجتهد فى تعرف عللها وعلاقة حقائق الكون بظواهره . . وهذا طريق فهم الشىء فهماً واضحاً ، فان فعل هذا قلنا أنه يتفلسف ولا نعنى بهذه الكلمة الا أنه يفكر فى شىء خاص ذاتاً كان أو معنى ،

ويحاول الاجابة على هذه الاسئلة (١) ما هذا الشيء الذى يبحث فيه عقلنا ؟ (٢) ما أصله ؟ (٣) ما علاقته بغيره من الذوات أو المعانى ؟

وبعبارة أخرى معنى « يتفلسف » أنه يبحث فى ماهية الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها ببعض . وليس يخلو انسان من هذا العمل وقتاً ما ، فساغ لنا أن نقول ان كل انسان متوسط الفكر يتفلسف وان كل الناس فيلسوف الى حد ما مع تفاوت فيما بينهم الا من استعبدته شهوته وانغمس فى اللذائذ المادية — الا أن كلمة « فيلسوف » اذا استعملت بدقة لا تطلق على من ينظر الى الشيء أحياناً فيتأمله ويفحصه أو يشك فيه ثم يرى فيه رأياً يعتقده ويتمسك به . بل كما أنا لا نسمي زجاجاً ولا قفالا من أصلح فى بيته لوح زجاج كسر أو عالج قفلا فسد انما الزجاج أو القفال من اتخذ ذلك العمل حرفة فى حياته ولم يقتصر على التعلم الصحيح بل أكسبته المثابرة على العمل مرانة وبراعة وعرف كيف يصل الى نتيجة خير مما يصل اليها غير المتمرن بجهد أقل من جهده ، فكذلك لا نسمي فيلسوفاً الا من كان أهم أغراضه فى حياته درس طبائع الاشياء وتعقلها — وعدته فى ذلك فكره — وكان له بمزاولة ذلك قدرة على ادراك الاشياء

بسرعة — وكما أن الصناع على اختلاف أنواعهم يعرفون دقائق عملهم وان شئت فقل ينبغى أن يعرفوا ذلك وأن يكونوا على علم بأحدث ما اخترع مما يتعلق بعملهم ، كذلك الفيلسوف المتخصص للفلسفة يجب أن يعرف ما وصل اليه من قبله وما قالوه فى المسائل التى تشغل فكره

ولكن ما الحامل على التفلسف ؟ وماذا نجنى من ورائه ؟ يقول ارسطاليس « ان الدهشة أول باعث على الفلسفة » . برز الانسان الى هذا الوجود فرأى نفسه فى عالم مختلف فى ظواهره ، وواجهه الزمان بصروفه فراعه ذلك واستخرج منه العجب فبدأ يسأل لماذا ؟ ومن أين ؟ والى أين ؟ رأى هذا العالم أمامه لغزاً فحاول حله وتلك المحاولة هى الفلسفة . وقد كان أول حامل له على حله ما يرجوه من المنفعة من وراء ذلك . ولهذا قيل أن المصريين هم واضعو أساس علم الهندسة لما ألجأتهم الحاجة الى تحديد ما يمتلكه الافراد أثر فيضان النيل السنوى . وقبائل البدو من الكلدانيين نظروا فى النجوم ليهتدوا بها فى السير بقطعانهم . وعلى الجملة فقد حاول الانسان كشف معميات الحياة ليكون أقدر على تحصيل مصالحه ورعايتها جسمانية كانت أو روحية . وقد ظل العقل الانسانى يتلمس السبيل للوصول

الى فهم العالم والحياة فهماً جلياً ثابتاً صادقاً ، ويحل ما يعترضه من ألغازهما. وتنوعت أمامه المسائل، فمن أرض ذات فجاج الى سماء ذات أبراج زينت بالنجوم للناظرين . فما أكثر متناول العقل وما أوسع بيداء الجهل حيث يجوب العقل البشرى فيها يرتاد « واحة » ويجدّ فى البحث لينفذ الى أسرار الطبيعة ينشرها بين الناس لينتفعوا بها — وبينا هو يتطلب معرفة الاشياء فراراً من الجهل اذ انبعثت فيه رغبة فى المعرفة نفسها ، وصار يتطلب المعرفة للمعرفة لا قصداً للفائدة العملية . والانسان مفطور على حب الاستطلاع وهذه الرغبة المتأصلة فى أعماق نفسه لا تستأصل، وهى دافع قوى يقوى بنمو العقل ويحمل على تطلب معرفة الحقائق الكبرى الاساسية لهذا الوجود وتلك الحياة وعلى البحث فى علل الاشياء وعلاقة بعضها ببعض ، وهذا ما دعا الانسان أن يتفلسف . أحس من نفسه الجهل بالشيء فشك فنظر ففكر فاعتقد الحق فيما رأى . وليس بما يعتقده الانسان بعد البحث حقاً قاصراً على التأمل العقيم بل غاية هذا التأمل أن يستخدم فى الحياة العملية فالفلسفة اذاً شوق وجدّ وراء معرفة الاسباب الخفية للاشياء للتوفيق بين آرائنا وأعمالنا . وهذا هو قصدنا فى الحياة ، فليس

ثمت غرض الا الفرار من الجهل والوقوف على الحق وكشف النقاب عن باطل تقنع بحجاب سخيف يوهم أنه حق

وأصل كلمة فلسفة وتاريخها يدلان على ما ذكرنا فقد روى المؤرخ اليونانى « هيرودوت » أن « كريسس » قال « لسولون » : « لقد سمعت أنك جبت كثيراً من البلدان متفلسفا » أى متطلباً للمعرفة . واستعمل « بركليس » كلمة « الفلسفة » يريد بها « الجد وراء التهذب » ومهما يكن من شىء فمنشأ الكلمة يشعر بالاعتراف بالجهل والشوق الى المعرفة قال « فيثاغورس » والاصح نسبته الى سقراط « الحكمة لله وحده وانما للانسان أن يجد ليعرف وفى استطاعته أن يكون محباً للحكمة تواقا الى المعرفة باحثاً عن الحقيقة » وهذا ما يدل عليه اشتقاق كلمتى فلسفة وفيلسوف فانهما مأخوذتان من « فيلوس » ومعناها « محب » و « سوفيا » ومعناها «الحكمة» فمعنى فيلسوف محب الحكمة ومعنى « سوفوس » الحكيم — وقد كانت « كلمة سوفوس » فى الاصل تطلق على كل من كمل فى شىء عقلياً كان أو ماديا فأطلقوها على الموسيقى والطاهى والبحار والنجار ثم قصرت بعد على من منح عقلا راقياً ، فلما جاء سقراط سمى نفسه فيلسوفاً أى محباً للحكمة تواضعاً وتمييزاً له

عن السوفسطائيين (المتجرين بالحكمة) الذين كانوا يطوفون البلاد يعرضون على الناس ما عرفوه بالثمن كما يفعل بعض الباعة وما كان المشترون ليشتروها أيضا الا رغبة فى الفائدة العملية

فالفلسفة اذاً تبحث عن كل مسألة يمكن البحث فيها وان شئت فقل عن العالم . ونحن نقسم مسائلها الى ثلاثة أنواع تبعاً لموضوع البحث :

(١) مسألة الوحدة أعنى علة العلل القادرة على كل شىء الخالقة لكل شىء، مفيضة الحياة على العالم ، وهذا القسم يسمى ما بعد الطبيعة أو ما وراء المادة

(٢) مسألة الكثرة أعنى مظاهر هذا العالم المتنوعة وهذا النوع يسمى « الفلسفة الطبيعية » .

(٣) مسألة أفراد المخلوقات التى أهمها لنا الانسان[1] ويشمل هذا النوع ما يأتى: علم النفس أى علم الحياة العقلية للانسان ويبحث فى (ا) الطرق التى يتبعها العقل للوصول

---

(١) ويسمى العلم الذى يبحث فى الانسان من حيث وجوده ورقيه ومن حيث جسمه وروحه أنثروبولوجيا أى علم الانسان وما يبحث فى الجسم فقط يسمى « فسيولوجيا » أو علم وظائف الاعضاء وما يبحث فى العقل يسمى « سيكولوجيا » أو علم النفس

الى نتيجة صحيحة ، وهذا يسمى المنطق وغايته ترقية فكرة الحق (ب) فى العاطفة وهـذا هو علم الجمال وغايته ترقية فكرة الجمال (ج) فى الرغبة أو الميل وهذا موضوع علم الاخلاق وهو يدور حول فكرة الخير

قال الاستاذ سلى : « أن تحليل الأدراك أساس علم المنطق وهو يقصد الى وضع قواعد بها نعرف أن نفكر أو نستنتج استنتاجاً صحيحاً ، وتحليل الشعور أساس علم الجمال وهو علم الغرض منه الاهتـداء الى مقياس صحيح يقاس به الجميل وما يستحق الاعجاب »

ولما كان سلوك الأنسان قد نظم ببيان ما يجب وما لا يجب قصداً للوصول الى الخير وكان بيان هذه الواجبات قد مهد السبيل للقانون ، والقانون اما طبيعى واما وضعى ، كان لنا من ذلك فلسفة تسمى « فلسفة القانون » وهناك مسائل تدور حول البحث فى علاقة الاشخاص بعضهم ببعض تكون علماً خاصاً يسمى « علم الاجتماع » وهـذا يشمل أيضاً فلسفة التاريخ

فموضوعات الفلسفة اذاً ما يأتى :

(١) ما بعد الطبيعة

(٢) فلسفة الطبيعة

(٣) علم النفس[1]
(٤) « المنطق
(٥) « الجمال
(٦) « الأخلاق
(٧) فلسفة القانون
(٨) علم الاجتماع وفلسفة التاريخ

الفصل الثانى

ما بعد الطبيعة
أو
ما وراء المادة

١ يمكن أن ينظر الى هذا العالم بكل مظاهره نظراً علمياً من جهتين مختلفتين . احداهما النظر اليه وفحصه من حيث أشكاله التى يتجلى لنا فيها وعليها تقع حواسنا مغفلين البحث عن علله المجهولة التى لا يمكن أن تعرف . والجهة الأخرى النظر فى روح هذه الظواهر من غير أن نلحظ تأثيرها فى

---

(١) يؤخذ على المؤلف أنه استعمل فيما مضى كلمة علم النفس وقسمها الى منطق وجمال وأخلاق وجعلها هنا قسيما لهذه العلوم (المعرب)

حواسنا . فالجهة الأولى موضوع العلوم الوضعية ، والأخرى موضوع ما بعد الطبيعة

لكل علم مدركات كعدة له وآلات لا يبحث هذا العلم فى قيمتها وانما يجدها مهيأة من قبل فيستخدمها فى أغراضه ويكتفى بها فهى موجودة وكفى . مثل المكان والزمان والكم والكيف والعلة والمعلول والحركة والقوة والهيولى والصورة[1] وهى مدركات توصف بها الموجودات — رأت العلوم ان علة الحقيقة ليست الا حقيقة أخرى وأن سبب الحركة ليس الا حركة أخرى فسبب الصوت مثلا حركة الهواء ، وليس ذلك السبب الا حالة أخرى — جاء العلماء فبحثوا فى الظواهر المتنوعة (كل فى فرعه الخاص) و نظروا فى أشكال المادة وتغيراتها كما يتراءى لهم ولم ينظروا فى ما هى المادة ولا لم كانت كذلك ، وانما وجهوا كل همتهم نحو معرفة كيفيتها فكانت دائرة علمهم قاصرة على الاشياء المتناهية والتى أساسها التجربة والاختبار — لم تقنع بهذا نفس الانسان — وهى الشغوفة بالبحث والاستقصاء —

---

(١) الهيولى كلمة مأخوذة عن اليونانية ومعناها مادة الشيء وجوهره وما تشكل به هذه المادة يسمى صورة ففى القطعة من الخشب مثلا مادة الخشب هيولى وشكلها صورة (المعرب)

فرأت أن هذه المظاهر الزائلة للحياة المادية لا تقوم بنفسها وانما يجب أن تكون وراءها قوة خفية أزلية أبدية هى للعالم كارادتنا فينا عند ما نعمل عملا أو نتحرك بارادتنا حركة . شيء مطلق لا يحده حد وليست له نهاية ، هو علة الموجودات وهو الذى تسميه لغة الدين « الله » — لهذا كانت الحاجة ماسة الى علم يبحث عن هذه المدركات المتقدمة التى تنتفع بها العلوم الاخرى ولا ترى أنها فى حاجة الى الشرح وهذا العلم هو «ما بعد الطبيعة» وهو لا يبحث عن حقائق العالم المادى كما يتجلى لحواسنا وانما يبحث فى الحواس من حيث مقدار الثقة بادراكها كما يبحث عن ماهية الاشياء وعلة العلل ، لا يكتفى بالحقائق حسب ما يوضحها الحس المشترك وحده بل يتطلب الشيء المجهول الذى قامت عليه العلوم الأخرى من غير أن تبحث فيه — فهذا العلم غرضه الوصول الى ماوراء هذه الظواهر الطبيعية غير قانع بمعرفة الاشياء التى قد تظهر لنا على غير حقيقتها

ان شئت فقل ان هذا العلم يحاول أن يقف على المحرك الخفى لهذا العالم ويتوق الى ان يخترق هذا العماء ليحس بنبضه

وان هذا الشوق لادراك هذه القوة الخفية المجهولة

الذى أفضى بالسذج الى الخرافات والاوهام هو الذى حمل الفلاسفة على البحث عما وراء الطبيعة . فعلم ما بعد الطبيعة هو علم « واجب الوجود » . علم يبحث عن العلة الاولى للأشياء . وهو فرع من الفلسفة ينظر فى أوسع المسائل مجالا للبحث الفلسفى .

٢ وهل علم ما بعد الطبيعة سينال غرضه يوماً ما أو سيظل صاغراً متسولا أمام ساحة تلك القوة الخفية الكبرى لا يستطيع أن يطأ حماها عاجزاً الا عن تخيل ما فيها محارباً للصعاب التى تعترضه فى سبيل كشف النقاب عن ألغاز هذا العالم الكثيرة؟ وهل يستطيع العقل البشرى أن يحل هذه المسائل حلا مرضياً ، أو سيظهر له أن البحث فيها بحث فى مستحيل ؟ كل هذه الاسئلة كانت ولا تزال عبئاً ثقيلا على العلم والفلسفة ، ولقد قيل « ان علم ما بعد الطبيعة والشعر الرفيع السامى يلتقيان فيمتزجان وان عالم ما بعد الطبيعة عالم درج فى غير عشه — ببحثه عن شىء فوق الحقائق — فاذا هو شاعر » وقال فولتير : « ان علم ما بعد الطبيعة بستان يرتاض فيه العقل وانه لألذ من علم الهندسة فلا نعانى فيه ما نعانيه فيها من الحساب والقياس بل فيه نحلم حلماً لذيذاً »

وقال «بكل» فى كتابه «المدنية فى انجلترا» — «ان كل باحث فى علم ما بعد الطبيعة انما يبحث أعمال عقله ولم يكن من وراء ذلك البحث استكشاف فى أى فرع من فروع العلم» وقال «بخنر» مؤلف كتاب «القوة والمادة» فى أحد مؤلفاته الأخيرة المسمى «بجانب قرن يحتضر»:
«بينما نرى علم النفس والمنطق والجمال والاخلاق وفلسفة القانون وتاريخ الفلسفة تستحق البقاء وينبغى أن يدرسها العقل البشرى اذ نرى ما بعد الطبيعة علماً مستحيلا وراء الطبيعة ووراء حواسنا فيجب أن يترك بضيعة ويعد من سقط المتاع».

٣ وقد كان البحث فى قضايا هذا العلم سابقاً لاسمه ففى قضاياه بحث الإيونيون[1] وفيها بحث كذلك أفلاطون وسمى هذه الأبحاث «الجدليات» أو علم الكلام واسم العلم يدل على أنه يبحث فيما وراء الطبيعة وقد جمع أصحاب ارسطو وتلاميذه ابحاثه المتعلقة بأصل الاشياء والتى تسمى «الفلسفة المبدئية» ووضعوها بعد ابحاثه المتعلقة

(١) الايونيون طائفة من فلاسفة الاغريق الاولين اشتغلوا بدرس الطبيعة مثل طاليس وهى نسبة الى أيونيا وهى الجزء الاوسط من شواطئ آسيا الصغرى الغربية (المعرب)

بالطبيعيات، ومن هذا نشأ اسم ما بعد الطبيعة علماً على ذلك العلم — ولم يكن الحد الفاصل بين مسائل الطبيعة وما بعد الطبيعة واضحاً جلياً فى الفلسفة اليونانية فقد أطلق اليونان اسم الطبيعيات على ما نسميه اليوم ما وراء الطبيعة ، ومن ذلك العهد الى الآن سمى هذا العلم بأسماء شتى فسماه «ولف» الفيلسوف الالمانى انتولوجيا أو « علم الموجود حقاً » تمييزاً له عن الظواهر التى تدرك بالحواس وبحث « ادورد هرتمان » فى مسائل هذا العلم وسماها « ما لا يحس » ، وكان « كانت » يقول « ان عقل الانسان مركب تركيباً يؤسف له فانه مع شغفه بالبحث فى مسائل لا تدركها حواسنا لم يستطع أن يكشف معمياتها » لذلك نصح فى كتابه المسمى (نقد العقل المجرد) بنقد عقولنا وقوانا قبل أن ننقد نظريات هذا العلم . أما فى انجلترا أرض الذوق الفطرى [1] فلم ينل هذا العلم حظاً وافراً ولم يشتغل به منهم الا القليل أشهرهم « بركلى »

وسنتعرض فى فصل تال لذكر مسائل هذا العلم والمذاهب التى قامت حولها

---

(١) نعنى بالذوق الفطرى الذوق الذى يشترك فيه الناس عاديهم وفيلسوفهم

الفصل الثالث

الفلسفة الطبيعية

١ ان موضوع بحث الانسان اما أن يكون هو الطبيعة بأضيق معانيها ونعنى بها مجموعة الاشياء المرئيـة المدلول عليها بكلمة « العالم » وأما « العقل » ونعني به القوة التى بها ندرك ونعلم ونتأمل ذلك العالم وقد شوهد أن ما تقع عليها حواسنا أكثر استرعاء لنظرنا من المدركات العقلية المجردة فان الأخيرة نتيجة تأمل ناضج لا يكون الا متى كان للعقل قدرة على التأمل فى نفسه . فالطفل أول مايتذكر انما يتذكر أسماء الاشياء التى تتميز بلونها أو ثقلها أوصوتها أو نحو ذلك وعلى الجملة فهو انما يتذكر مايسترعى حواسه، وما أشبه الامم فى أول حالتها العقلية بالطفل فانه يتدرج فكرها فى الرقى كما يتدرج فكر الفرد فى النمو . ودليلنا على ذلك اللغة ، فاللغة تضع أسماء وحدودا لما تدركه حواسنا وما تدركه قوانا العاقلة وقد أثبت علم اللغة ان أسماء الجوامد التى تدرك بالحواس اسبق فى الوجود من الالفاظ الدالة على عمل الحواس نفسها من نظر وسمع ونحوهما — لهذا كانت

المباحث الفلسفية الأولى تدور حول المرئيات أعنى مجموعة الاشياء التى نسميها « العالم » فكانت أهم مسائلهم البحث عن كل المظاهر التى تقع عليها حواسنا والتى يطرأ عليها التغيير الكثير ، وعن العنصر أو مادة الشيء التى تبقى مع ما يطرأ عليها من التغيرات . تلك المسائل هى موضوع ما يسمى « فلسفة الطبيعة » ويقابلها « فلسفة العقل »

٢ وقد دوّن أفلاطون آراءه فى هذا الموضوع فى رسالة سميت « تيمايس » وأوضح الفرق بين الطبيعيات وما وراء الطبيعة بأن الطبيعة « معرض التغير » وأما ما وراءها « فمعرض الثبات » وجمع أرسطاليس آراءه فى الطبيعة وفلسفته فيها فى كتابه « علم الطبيعة » . وفى العصور الحديثة سمى هذا الجزء من الفلسفة قسمولوجيا (علم الكون) وجعل علم الطبيعة فرعا منها ـ وقد وجه العقل البشرى نظره فى طور نشوءه الأولى (أى قبل أن يفكر فى نفسه) نحو العالم الخارجي أعنى نحو الطبيعة ودراستها — والطبيعة وحدة تتجلى فى أشكال متعددة وقد ظل الانسان من أيام نشأته يجد فى البحث وراء معرفة القانون الثابت للتغير المستمر ويريد أن يعرف ذلك العنصر الذى تتشابه التغيرات وتجرى عليه الظواهر المتنوعة وذلك ما ترمى اليه فلسفة الطبيعة.

وكان ممن بحث فى هذا الموضوع فلاسفة اليونان الأولون مثل طاليس وأنكسيميندر وأنكسيمينيز . وقد ذهب بعضهم الى أن ذلك العنصر الأساسى الذى تجرى عليه التغيرات هو الماء وآخرون أنه الهواء ومن أجل هذا سمى فلاسفة اليونان الاولون « الفلاسفة الطبيعيين » أى الذين بحثوا فى المادة — ما ظهر منها للحواس وما خفى — وهم أول من تكبدوا مشاق السير للوصول الى الحقيقة وقد كان سيرهم بالطبع بطيئاً يصحبه التردد والحيرة ، وحاولوا ايضاح الظواهر المتعددة ليدركوا منها وحدة العالم وليشرفوا على ما شاع من غلط الحواس ، وقد نشأ علم ما بعد الطبيعة عند الفلاسفة الايونيين من الطبيعيات كما نشأ هو (علم ما بعد الطبيعة) عند الفيثاغوريين من العلوم الرياضية . فالاولون كان يهمهم البحث فى الهيولى (المادة) وحركتها الابدية .والآخرون (الفيثاغوريون) فى النظام الذى يسود العالم — فى الوحدة والنسبة وتوافق المتضادات والعلاقات الرياضية الكامنة فى كل الأشياء ذاهبين الى أن كل شيء فى علم الهندسة والهيئة والموسيقى مآله العدد وأن العدد أساس العالم وروحه وأن الأشياء ليست الا أعدادا محسوسة وكما أن العدد روح الأشياء فالوحدة روح

العدد[1]، وقد أهمل البحث فى الطبيعة فى العصور الوسطى، تلك العصور التى سادت فيها الكثلكة (الكاثوليكية) وغلب على الناس التدين الأعمى والخضوع المطلق، فلم يفكروا الا فى أنفسهم وعلاقتها بالله بل كانوا يستخفون بهذه المباحث فقل النظر فيها حتى جاءت البروتستنتية فحررت العقول من أغلالها، فهبت من رقدتها للبحث، وساعد على نهضتها استكشاف ممالك لم تكن تعرف، فانبعثت الفلسفة القديمة ووجه الفلاسفة مثال «جاليلو» و«كبلر» و«برونو» وغيرهم انظارهم نحو العالم والكون فأداهم النظر الى استكشافات كبرى (وتبين ان ذلك الكوكب الذى نعيش فيه ليس الا هنة تدور حول شمس من شموس عديدة انتثرت فى الفضاء نثر الرمال فى الصحراء) ولم يكن العلم الطبيعى (الفلسفة الطبيعية) متميزا عن فلسفة الطبيعة حتى فى أيام الفلاسفة «ديكارت» و«ولف» و«نيوتن» الى أن ظهر سنة

---

(١) ليس من الثابت تاريخياً نسبة النظريات الفيثاغورية الى فيثاغورس الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد فان كل ما يعرف من حياته انه أسس مذهباً دينياً وكان ذا قدرة وكفاءة فى السياسة والاخلاق ولم يذكر أرسطو ولا أفلاطون شيأ عن تعاليم فيثاغورس نفسه بل كل ما ذكراه انما كان عن الفيثاغوريين لا عن فيثاغورس. المؤلف

١٧٧٠ م الكتاب المشهور المسمى « نظام الطبيعة » لمؤلفه « بارون هلباخ » وان كان الكتاب ظهر باسم « ميرابو » وجاء « كانت » و « شيلنج » فأوضحا الفرق بين فلسفة الطبيعة والفلسفة الطبيعية ومن ثم سارت العلوم الطبيعية شوطاً بعيداً ، وقد حصرت فلسفة الطبيعة فى مسائل « ما وراء المادة » أو ما بعد الطبيعة ، وفى البحث فى أشياء كانت سبباً فى استكشاف العلوم الطبيعية فيبحث فى : القوة والهيولى والحركة والحياة ونحوها مما هو موضوع العلوم الطبيعية

الفصل الرابع

علم النفس (سيكولوچيا)

١ — كان مما لفت نظر الانسان وأيقظ رأيه واسترعى بحثه ومرّن فكره — كما ذكرنا — هذا العالم الذى تنوعت أشكاله وتغيرت ظواهره ، الحافل بمناظره المحيّر بألغازه الذى بهر العقول بجماله وروائه ، وقد كان أول باعث على أن يفكر فيه تفكيراً فلسفياً رغبته فى فهمه واخضاعه لأمره وما اعتراه من الدهشة التى أخذت بحواسه . لذلك بدأ

الانسان بالفلسفة الطبيعية التى تميل بالمرء الى حل معميات هذا العالم ، وتلا النظرَ فى العالم المادى ما هو أهم للانسان وهو النظر فى نفسه

أثبت العلم ان الأرض ليست الا كوكباً صغيراً سياراً يدور فى فضاء غير متناه . ومع هـذا فالانسان من قديم الزمان الى الآن لا يزال يرى نفسه خير موجود فى الدنيا ومهما اقتنع بأن القبة الزرقاء التى تتلألأ بالنجوم لم تخلق من أجله ، وان السيارات غير الارض مسكونة كأرضه ، فلن يعدل عن أن يعتقد فى نفسه أنه أرقى مخلوق، والسبب فى هذا ان ارتقاء عقله جعله يشعر تدريجياً بوجوده وبعلمه أو بحاجته الى العلم ، وبشعوره ورغباته وأفكاره ، وبأن له قدرة على أن يبدى أفكاره ، وأن يفضى بها الى غيره وعلى الجملة جعله يدرك أنه وحده عالم فى عالم

دعته دواع لأن يعرف فاجتهد فى تعرف ما حير عقله وكانت تلوح منه التفاتة نحو نفسه فيأخذه العجب من تلك القوة التى فيه ، بها يتحرك وينطق ، بها يريد ويرغب ، بها يشعر ويشتهى — قيل ان سقراط استنزل الفلسفة من السماء الى الأرض أى الى الانسان (١) ونعنى بذلك أن

(١) يتركب الانسان من جسم وعقل والبحث فى الانسان قد

هذا الفيلسوف اليونانى العظيم أول من بدأ بالتفكير فى الانسان وما يتعلق به ، وفضل ذلك على النظر فيما يحيط به من العالم المادى . وقد نسب اليه أنه أول من قال « اعرف نفسك » ولكن الحقيقة أن « طاليس » قالها من قبله . ومن ذلك الوقت والانسان حيران فى تلك الأسئلة التى وردت على لسان الشاب الحزين فى شعر « هينى » سألها نفسه فى جنح من الليل وقد هدأت الأصوات وهو واقف أمام البحر المحيط الموحش : « ما الانسان ؟ من أين أتى ؟

يكون فى جسمه وقد يكون فى عقله والانثروبولوجيا او علم الانسان يشمل كل الابحاث المتعلقة بالانسان سواء من حيث عقله أو بدنه وسواء من حيث هو فرد أو نوع كما يشمل البحث فى علاقته بالحيوانات اللبونة

وكلمة انثروبولوجيا يونانية الأصل تتركب من « انثروبوس »ومعناها الانسان و« لوجوس» ومعناها علم فمعنى انثروبولوجيا علم الانسان وهو يبحث فى كل ما يتعلق بالانسان فيبحث فى اصله وتدرجه فى الرقى وكيف انتشر على وجه الارض — والبحث فى جسم الانسان« الذى هو فرع من الانثروبولوجيا » تفرع الى علوم كعلم التشريح والطب وكلها تسمى عادة (سوماتولوجيا) من سوما جسم ولوجوس علم اى علم الجسم وهو مما يدخل فى دائرة العلوم الطبيعية . والبحث فى الخصائص المميزة لانواع الانسان المختلفة وعلاقة الاجناس البشرية بعضها ببعض يكون علماً خاصاً يسمى أثنولوچيا من أثنوس شعب ولوجوس علم فالاثنولوچيا علم الشعوب المؤلف

والى أين يذهب ؟ » تلك أسئلة تركت المفكرين فى كل العصور حيارى ، أيام كان النوع الانسانى فى همجيته ، وأيام ان ابتدأ يرقى عقله ، وأيام أن بلغ فى المدنية والنمو العقلى شأواً بعيداً . قال « سوفوكليز » الروائى اليونانى : «ما اكثر العجائب وأعجبها الانسان» . ان هذه الأسئلة : « ما الانسان وما منزلته فى العالم وما علاقته بالأشياء التى تحيط به ؟ » هى التى قال فيها هكسلى : « أنها أساس كل ما عداها من الأسئلة وانها أحب للانسان مما سواها » هى التى شغلت الرؤوس على اختلاف أنواعها : من ذوات القلانس من قدماء المصريين ، الى حملة العمائم ، الى لابسى القبعات السود ، الى أرباب الضفائر ، الى ألوف من رءوس تصببت عرقاً من البحث . كلٌّ سأل هذه الاسئلة ، وكلٌّ أجاب واختلفت اجابتهم باختلاف روح العصر الذى كانوا فيه

٢ — وتسمى المباحث التى تتعلق بالنفس أو العقل علم النفس أو سيكولوجيا من « سيكى نفس ولوجوس علم » وهو يبحث فى الانسان من الجهة الخُلقية والعقلية لا من الجهة الجسمية

ولسنا نتعرض هنا للبحث فيما اذا كان العقل أو النفس شيئاً غير الجسم مستقلا عنه ، أو كانت قوة التفكير التى

ميزت الانسان عن غيره من الحيوان ، والتى أخذت فى النمو شيئاً فشيئاً برقى النوع الانسانى من حالة البداوة الى حالة المدنية ، تابعة لحالات الانسان الجسمية ، فان رسالة تؤلف لسواد الناس لا يتسع المجال فيها لهذا البحث ، ويكفينا هنا أن نذكر أن العلاقة بين العقل والبدن وان شئت فقل بين أعضاء البدن الظاهرة والاخرى التى يظهر أنها خفية ، كانت موضع اهتمام عظيم فى العصور الحديثة أدى الى كثير من النتائج العلمية الهامة ، ومن أشهر رجال هذا العلم « هكسلى » و « بخنر » وغيرهما

ان هذه الرسالة التى لم يكن من غرضها الا النظر فى الفلسفة من جهة تاريخية وعرض مسائلها ، تتجنب البحث فيما اذا كان النظام العقلى والبدنى شيئاً واحداً أو شيئين ، وفيما اذا كان العقل قوة غريزية أو مكتسبة ، بل ولا تتعرض لما « اذا كان الرقى العقلى للانسان — كما يقول هكسلى — يشبه السرفة [1] فى تحولها تنزع عنها جلدها وتتحول الى فراشة ، وأن العقل الانسانى فى أكبر مظاهره ثمرة القوى الطبيعية وأنه مركب من مواد كما تتركب الشمس والسيارات أو أن الفكر منبعث عن النفس التى هى شرارة آلهية . كلا

---

(١) السرفة الشرنقة

بل ولا نخوض فيما اذا كانت الروح عند ما تلفظ النفس الأخير ترد الى عالم الارواح غير المعروف كما يقول رجال الدين ، فيرجع الجسم الى الارض وتلحق الروح بالله ، أو أنها تفنى فناء الجسم ويشتركان فى الفناء كما اشتركا فى البقاء ويختفى الانسان كما يختفى النبات — تلك كلها مسائل نذكرها ولا نناقشها

من المحتمل أن يكون الفكر شيئاً روحانياً وأن يكون مجرد قوة بدنية هى وظيفة المخ المنظم عند الانسان أكثر منه عند الحيوانات اللبونة [1] . والذى يهمنا هنا هو أن نذكر أن المخ — على أى حال كان — هو عضو التفكير وهو يفنى مع مادة الجسم ويصبح الرأس بعد الموت وقد زال عنه كل ما كان له من حيل ودهاء ومغالطة وسفسطة

وما دامت العلاقة بين الفكر والبدن قائمة وما دام المخ يؤدى وظائفه فاننا نعرف وتفكر ونريد ونرغب ونحس ونشعر بصدور هذا عنا

وعلم النفس ينظر فى الاعمال التى نعملها والطرق التى نتبعها للوصول الى ذلك الشعور ، ويبحث فى حقيقة

---

(١) الحيوانات اللبونة هى الفصيلة من الحيوانات التى ترضع أولادها وهى تكوّن أرقى نوع من الحيوانات الفقرية • (المعرب)

القوى التى تفعل ذلك أعنى قوة المعرفة ، وقوة الشعور .
وحدود الفكر ، ومقدار الثقة بصحة التفكر ، ووظائف العقل المختلفة التى بها ندرك ونحكم و نتخيل .

فعلم النفس اذاً يبحث فى عمل العقل

قال الاستاذ « سلى » فى كتابه « العقل البشرى » :

« ان أهم ما يقصده هذا العلم أن يشرح ظواهر الشعور الراقى فى الانسان ، وهذا الشرح العلمى يقتضى ترتيباً وتبويباً للعوامل المختلفة فى الحياة العقلية ، وشرحاً لمنشئها وارتقائها فليس الغرض من هذا العلم أن يصف الظواهر العقلية فقط بل وأن يتتبع أصلها وتاريخها

• علم النفس يبحث فى : قوى الالتفات ، والاحساس ، والادراك ، وقوة الحافظة والذاكرة والارادة وحريتها ، والخيال ، والوهم ، وفى الشعور والعواطف ، وفى اللذة والألم وفى الشم والذوق

فهو يبحث فى أعمال العقل ليستكشف قوانينه وطرقه التى عنها تصدر الظواهر المتقدمة ، كما انه يبحث فى طبيعة العقل وحقيقته وجريه على سنن واحد ، وروحانيته ، وعلاقتـه بأعضاء الجسم واعتماده عليها ، وتبادل الفعل والانفعال بينه وبينها .

قال الاستاذ « هكسلى »: « ان مثل الباحث فى النفس « السيكولوجى » مثـل المشرح فـكما ان المشرح يفصل الاعضاء الى أنسجة والانسجة الى خلايا فكذلك السيكولوجى يرجع الظواهر العقلية الى حالات الشعور الأولية» فالعالم فى وظائف الاعضاء يبحث فى الطرق التى بها يؤدى البدن وظائفه ، وعالم النفس يبحث فى قوى العقل — وكما ان العـلوم الطبيعية تبحث فى العالم المادى الخارجى بواسطة الحواس كذلك عـلم النفس يلاحظ ويبحث بواسطة قوة خاصة تسمى « الحس الباطنى » .

وعلى الجملة فعلم النفس يبحث فى الحياة العقلية قابلة أو فاعلة وفى الشعور بكل مظاهره. وما يبحث عنه علم النفس من ظواهر وحقائق مستمد اما من الشعور واما من الادراك بالحس

٣ ان فكرنا ومعرفتنا واحساسنا اما نتيجة قوة إدراك باطنية واما نتيجة انعكاس ما ندركه من الخارج بواسطة الحواس: فنحن تارة نوجه نظرنا الى عمل ذهننا عنـد ما نعمل أو نفكر أو نحس ، وتارة نبحث الظواهر العقلية فى غيرنا فندرس نظراتهم واشاراتهم وأعمالهم وأقوالهم . ونستنتج ما تدل عليه تلك المظاهر من الفكر والحس

قياساً على ما يبـدو علينا عند ما نفـكر مثلهم أو نحس كاحساسهم

قال الاستاذ سلى : « ان لدرس ظواهر العقل طريقتين. احداهما توجيه عنايتنا الى الاعمال العقلية عنـد حدوثها في ذهننا أو عقب ذلك مباشرة كما ألاحظ نفسى عنـد الغضب مثلا فأرى تسلسل الافـكار وتلونها بألوان خاصة وما ينشأ عن الغضب من تحيز وميـل عن الحق ، وتسمى هذه الطريقة « ملاحظة الباطن » . والطريقة الأخرى ان ندرس أعمال العقل فى غيرنا بما يظهر عليهم فنلحظ الارتباط بين أفكارهم مما نسمع من كلامهم ، ونعرف الباعث على أعمالهم من نفس أعمالهم ، وتسمى هذه الطريقة « ملاحظة الظاهر » لاننا نتوصل الى معرفة الحقائق العقلية بواسطة الظواهر الخارجية التى تدرك بالحواس من مثل كلمة تقال أو صرخة تسمع أو حركة ترى أو لون يتغير »

٤ والبحث فى علم النفس (سيكولوجيا) سابق على وضع اسم له . فان هذا الاسم لم يستعمل الا فى آخر القرن السادس عشر للميلاد مع أنا ذكرنا فيما قبل ان «سقراط» أو « طاليس » قال « اعرف نفسك » وألف « ارسطو » كتاباً يحتوى ثلاث مقالات عنوانه «فى النفس» بحث فيه

فى القوى العقلية للانسان وعدها عين النفس والحياة

ثم جاء الفيلسوف الفرنسى رنيه ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) فوجه هذا العلم وجهة جديدة ومما يؤثر عنه انه أجاب من سأل « كيف أعرف أنى موجود» بقوله المشهور «انى أعرف انى أفكر وأشعر بتفكيرى فأنا أعرف انى موجود»

والمنابع التى يستقى منها هذا العلم اثنان كما أسلفناوهى ملاحظة أعمال عقله وما يجرى من التجارب على غيره — وجاء الفيلسوف الانجليزى جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) فألف رسالة فى العقل البشرى بحث فيها فى الادراك الغريزى بالحس — باطناً كان أو ظاهراً — وذهب الى أن العقل البشرى صحيفة بيضاء تدخل اليها التجارب من أبواب الحواس فتترك فيها نقوشاً وأثراً ، فنحن نحصل معارفنا اما بواسطة الحواس واما بواسطة التأمل [1] وفى القرن الماضى بدأ الناس بعد ما استكشف من الحقائق اليقينية يميلون الى فصل علم النفس عن الفلسفة وجعله علماً مستقلا كعلم وظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) اذ كان لا علاقة بينه وبين نظريات ما بعد الطبيعة

---

(١) انظر (نظرية المعرفة) الآتية

(ولما كان علم النفس يبحث فى أعمال العقل بحثاً عاماً اجتهد فى تعرف القوانين والقواعد التى تهدى الفكر وتعصمه من الخطأ وأخذ يبحث فى النظام الذى يسير عليه الفكر ليصل الى نتيجة صحيحة ، فنشأ من ذلك فرع من علم النفس انفصل عنه وسمى « بعلم المنطق » .

الفصل الخامس

علم المنطق

١ — جاء فى احدى روايات « موليير » ان أحد أغنياء التجار رأى أن ينزع عن جهله ويعود الى التعلم ، فما كان أعجبه حين علمه معلم اللغة أن الكلام اما نظم أو نثر وأن كل ما ليس بشعر نثر ودعاه العجب أن يسأل : فمن أى نوع أنا أتكلم ؟ قال : انك تتكلم نثراً . قال : فأنا أتكلم نثراً طول حياتى ولا أعرف ؟ ثم ذهب الى اهله وجمع عشيرته ليخبرهم بالاستكشاف الجديد . كذلك كثير من الناس يرعبون اذا ذكر اسم المنطق أو اقترح عليهم أن يقرءوا كتاباً فى المنطق،ولو علموا انهم فى محادثاتهم اليومية ، وما يدور بينهم من مناقشة وما يشرحون من معتقدات ومسائل

دينية وسياسية يسيرون على مقتضى المنطق لاعتراهم من الدهش ما اعترى ذلك التاجر

اذا شرحت نظرية او قيل قول او ذكر رأى فأننا نصغى اليه ونفهمه ولكنه لا ينطبع فى عقولنا حتى يبرهن عليه فان نحن حللناه وامتحناه وتبينت لنا صحته انطبعت فى عقولنا نتائج لا نشك فى صحتها واننا ان سرنا على هذه الطريقة قيل اننا نفكر تفكيرا منطقياً او تفكيرا صحيحاً ، فالمنطق اذن علم التفكير الصحيح ،وهو يبحث فى القوانين والشروط الضرورية للوصول الى حكم صحيح يقبله كل مفكر عادى

ما الشروط التى تجعل الحكم صحيحاً ؟ كيف نمتحن الحكم ونتأكد من صحته ؟ هذه مسائل يبحث عنها علم المنطق وهو لا يعلمنا كيف نفكر أو ماذا يعمل عقلنا عند التفكير فحسب بل يعلمنا أيضاً كيف ينبغى أن نفكر فهو يحلل التفكير الصحيح وما نعمله لنصل الى نتيجة صحيحة ويرينا خطأ الفكر عند ما ينحرف عن القواعد.هذا وكثير من الناس يستخفون بالمنطق ويستهزئون به وما دروا انهم مناطقه الى درجة ما ، تتبع عقولهم ما يرسمه المنطق

وان لم يعلموا ويلاحظون قوانين التفكير الصحيح على غير علم منهم بها حتى ولا بوجودها

٢ — اذا نحن امتحنا التفكير وجدناه يتركب من ثلاثة أعمال يعملها العقل : احساس بالشيء أو المعنى، وتأثر العقل بهذا ، وادراكه ، وهذا هو الفهم فى أبسط أحواله — بعد ذلك نبتدئ نؤلف بين فكرتين فاما أن نقرنهما بعضهما ببعض أو نفرق بينهما (أى اما ان نثبت واما ان ننفى) وبذلك يتكون الحكم على الأشياء ، وهذه الاحكام يظهر لنا بعضها صحيحاً والبعض الآخر خطأ ، واذ كنا نحاول دائما الوصول الى أحكام مقبولة عند غيرنا كما هى مقبولة عندنا حاولنا أن نستكشف عللا وأسباباً تتبين منها وجوه خطأ الحكم وصحته فقارنا الاحكام بعضها ببعض ونظرنا فى العلاقات التى بينها وبحثنا فيما يقال مبتدئين من الجمل الاولى التى تسمى (المقدمات) ومنتهين بما يسمى « بالنتيجة »

ولا حاجة بنا هنا الى البحث فيما اذا كان الادراك يمكن أن يقوم بنفسه من غير الفاظ أولا واذا كان فالى أى حد يكون ذلك ؟ فان هذه المسألة كانت ولا تزال موضع بحث علماء النفس والمناطقة ، فمنهم من يؤيد القول بأنه من الممكن التفكير بدون الاستعانة باللغة ، ومنهم من يذهب الى أن

ذلك غير ممكن وان التفكيرمن غير ألفاظ ضرب من الوهم الكاذب . وقد قرر «مكس ملز» مراراً أن الفكر واللغة حقيقة واحدة

شبه ذلك بالنقد [1] فقال : « ليس ما نسميه بالفكر الا وجهاً من وجهي النقد ، والوجه الآخر هو الصوت المسموع،والنقد شيء واحد لا يقسم ، فليس ثم فكر ولا صوت ، ولكن كلمات » وقد نوقشت نظرياته وعورضت ومهما يكن فان من المسلم أننا عندما نتعقل شيئاً أونستنتجه نستعمل الألفاظ فى الدلالة على عمليات العقل،ومن المتفق عليه اننا نشرح أفكارنا بالألفاظ والكلمات الخارجية فقد وضعنا للشيء الذى فى عقلنا اسما ودللنا عليه بكلمة خاصة سميناها « اللفظ » وبانضمام لفظين أو أكثر مع رابطة نستطيع أن نشرح رأياأوحكما، وهذاهومايسمى «القضية » ولأجل أن نبرر أقوالنا ونبرهن على صحتها ونوضح وجه قبول قول أو رفضه نضع القضايا ونستنتج منها نتائج ، وهذه الأدلة المكونة من القضايا تسمى « الأقيسة » . فالمنطق - وهو علم التفكير الصحيح — يبحث فى الألفاظ والقضايا والاقيسة— هذاولا يخفى مافى تحديد معانى الألفاظ

(١) النقد هنا أحد النقود كالجنيه والريال

من الفائدة فكثيراً ما يثور الخلاف بيننا فى مسألةويشتد الجدال فى موضوع ويظهر أن المتجادلين على خلاف فيما بينهم وهم فى الواقع على اتفاق . ولو حددت ألفاظهم لتجلى لهم أنهم على رأى واحد . وليس منشأ الخطأ فى الفهم الا الغلط فى تحديد الالفاظ أو غموضها وتعقيدها والتباسها لذلك كان « ڤولتير » يبدأ المناقشة دائماً بقوله : « حدد ألفاظك » فالعلم بمعانى الالفاظ علماً صحيحاً لا يستغنى عنه للتفكير الصحيح ولا للحكم الصحيح

٣ — وعند مانستخلص حقيقة من حقيقة أخرى نسمى ذلك « استنتاجاً » وليكون الاستنتاج صحيحاً يجب أن نسير على مقتضى قوانين تعصمنا من الخطأ وتمنعنا من الوصول الى نتيجة باطلة

والقوانين الاولية للفكر ثلاثة وهى :

(١) قانون الذاتية وهو ان كل شىء هو هو وبعبارة أخرى كل شىء هو نفسه

(٢) قانون التناقض وهو ان لا شىء يمكن أن يكون هو وليس هو

(٣) قانون الامتناع وهو ان الشىء اما أن يكون أو لا يكون أوالشىء اما أن يكون كذاأوغيره وبعبارة أخرى

الشيء اما أن يجاب عنه بنعم أو بلا

واذا نحن أهملنا قوانين الفكر الصحيح فلا بد من الوقوع فى الخطأ مع عجزنا عن معرفة موقعه ، ولا بد لنا غالباً من الرجوع الى القول من مبدئه لاستكشاف الموضع الذى انحرفنا فيه عن الصواب ، والذى بسببه نصل الى غير ما قصدنا . وتسمى هذه الاغلاط « بالمغالطات »

ونحن فى بحثنا لا نقصد الوصول الى نتيجة صحيحة فحسب ، وانما نقصد الوصول اليها من أقرب طرقها ، وللوصول الى ذلك نستعمل نظماً متنوعة يظهر لنا أنها أنسب لغرضنا ، وتسمى هذه النظم « بالطرق ». ويستخدم المنطق فى كل العلوم على اختلاف انواعها

وهذه الطرق متنوعة فمنها :

١ — طريقة الاستقراء وهى فحص أمثلة ومعلومات ثم محاولة الوصول منها الى قاعدة عامة وتسمى هذه الطريقة طريقة التحليل لأنها تحلل الكل الى أجزاء

٢ — طريقة الاستنتاج وهى على العكس من الأولى ففيها يبتدأ بذكر قضايا عامة ، ووضع بعضها بجانب بعض ، واستنتاج النتائج منها . وتسمى « طريقة التركيب » لأن بها تركب من الاجزاء قضايا عامة

فى الطريقة الأولى وقد تسمى أيضاً « الطريقة العكسية » نبتدىء من الجزئيات ونستقريها ثم نستنتج منها قضية عامة . وفى الثانية وتسمى « الطريقة الطردية » نبتدىء من القاعدة العامة ثم نطبقها على الجزئيات التى نعرفها من قبل بالاختبار(١)

الفصل السادس

علم الجمال

هنالك فرع آخر من فروع علم النفس يبحث فى الشعور الذى ينبعث عن الشىء الجميل والذى يستحق الاعجاب أو عكسهما أعنى القبيح والمزدرى

ان فى حواسنا ولاسيما حاستى السمع والبصر أليافا بها نشعر باللذة اذا سمعنا بعض الأوصاف أو رأينا بعض المناظر — وان المناظر الطبيعية العديدة فى بهائها وجمالها

---

(١) مثال الطريقة الاولى أن تقول ان الماء يتمدد بالحرارة والحديد يتمدد بالحرارة وتستقرى كثيرا من الاجسام فتجدها كذلك فتضع القاعدة العامة وهى الاجسام تتمدد بالحرارة . ومثال الطريقة الثانية ان تضع القاعدة العامة أولا ثم تستنتج منها أن الفضة والذهب والحديد تتمدد بالحرارة (المعرب)

وعظمها، وتوقيع الموسيقيين فى تناسقه ، وصور المصورين وتماثيلهم [١] وقراءة الشعر الجميل وسماعه ، ليحدث فى نفوسنا اريحية ويبعث فى قلوبنا هزة طرب ، فطورا نلفظ بما يدل على شعورنا فنهتف « ما أجمله وما أبدعه . انه لمنسق وانه لرشيق » وطوراً نتدرع بالصمت اذ لم نجد قولا يعبر عن شعورنا . وانا لنسر برؤية الشيء ونعجب به ولو كنا لا نملكه بل قد

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظراً

ان الجميل ترتاح له النفس وينشرح له الصدر ، أما القبيح فينشأ عنه شعور بألم أونفور قال « نيتشه » : « كل ما كان قبيحاً يضعف الانسان ويقبض صدره اذ يذكره بالانحطاط والخطر والوهن »

فاحساس الانسان بشيء من الضيق يؤذن بحدوث شيء « قبيح » . وقد ذكرنا أن الجميل ترتاح له النفس ولكن ليس كل ما ترتاح له النفس جميلا، ذلك لان اللذة التى تحدث من الجمال نتيجة تأثير فى العقل بواسطة الحواس ، ولست أعنى كل الحواس، وانما أعنى الحواس الراقية وهى حاستا السمع

---

(١) مثل المؤلف للموسيقيين بيتهوفن وموزارت ، وللمصورين بتشان ويلو

والبصر، فليس كل ما يلذ لحاستى اللمس والشم دائماً جميلا ،
فلا شيء من الجمال فى فاكهة لذيذة عنـد أكلها ولا فى
مطعوم عند ما نطعمه ، اذ لا يوصف ذوق تفاحة ولا شم
مشموم بأنه جميل وانما يقال طعام مستطاب ورائحة طيبة

٢ والجميل أيضاً يغاير النافع فان الشيء الجميل حقاً الذى
يمنحك لذة لا تكافئها لذة بالتأمل فى محاسنه أو بالاصغاء
الى تناسق نغماته ، ليس بنافع عادة (أعنى أنه ليس بنافع
مادياً وان كان من المحتمل أن يكون نافعاً من الوجهة الادبية)
وما يحدث من اللذة والسرور عند التأمل فى الجمال مقصود
لذاته لا لشيء آخر وراءه يرغب فيه ، وقد كان الفيلسوف
الالمانى «كانت» أول من أبان أنه مقصد لا وسيلة لغيره

والسمع والبصر اللذان يعدان أعظم الطرق الى العقل،
هما العضوان اللذان يوصلان الى المخ أو الى المركز العصبى
كل التأثرات التى تحدث من التأمل فى اللون والشكل
والهيئة والحركة ، أو من سماع أصوات خاصـة . وهذه
التأثرات تكون مصحوبة عادة بشعور بلذة أو ألم .
وتسمى اللذة التى تحدث من التأمل فى الجمال «لذة الجمال»
وهى أثر الجمال يخاطب عواطفنا وعقولنا وخيالنا بواسطة

الحواس فيذكى نفوسنا ويرقيها ويزكيها . ومن مميزات هذه اللذة خلوها من رغبة فى الملك تسبب احساساً بالألم لا محالة — ففرع الفلسفة أو علم النفس الذى يبحث فى هذه العواطف وتلك اللذائذ هو علم الجمال . والانسان كثيراً مايحس بسرور ولكنه لا يعرف علته وقلما يبحث فى السبب ويحلله . والغرض الفلسفى من علم الجمال أن يبحث وينقب ويحدد ذلك . نعم أن الفيلسوف والعامى يشتركان فى أن كلا يشعر ، ولكن الثانى لا يستطيع أن يوضح شعوره بقول أو فعل كما يستطيع الفيلسوف والفنّان[1] فالعامى يشعر فقط ، والفيلسوف يشعر ويتأمل . فى العامى غريزة ساذجة وعاطفة والهام يشاركه فيهما الحيوان الى حد ما ، وفى الفيلسوف تبصر وامعان وفكر

٣ علم الجمال وان شئت فقل « علم الجميل » هو علم يبحث فى الشعور والاحساس واللذائذ التى تبعثها مناظر الاشياء الجميلة ، وهذا التعريف لا يسلم من النقد ان لم يكن خطأً محضاً ، فان هذا العلم لا يبحث فى الجميل فقط بل يبحث

---

(١) استعمل بعض كتاب العصر كلمة الفنان ترجمة لكلمة Artist وتبعناه فى ذلك وهى فى مقابلة العالم فالعالم من يبحث فى العلم والفنان من يشتغل بالفن كالمصور والموسيقى (انظر ذيل صفحة ٤٠)

فى القبيح أيضاً ، كما انا اذا تكلمنا عن « علم الحروب » فلسنا نعنى علم النصر ، وانما نعنى علم الحركات الحربية التى ينبغى أن يؤدى الى النصر وربما أدت الى الهزيمة

الجميل يبعث فى النفس الشعور بالحب والجاذبية واللذة والسرور . والقبيح يبعث الشعور بالكراهية والنفور . ولكن نرى جمال الطبيعة الرائع ، والنجوم التى لا عداد لها ، سابحة فى الفضاء ، منثورة نثر الرمال فى الصحراء ، والجبال الشامخة ، والبحار الشاسعة ، وشروق الشمس وغروبها . فنطلق عليها اسم « الجميل » وهى مع ذلك تحدث فى النفوس حزناً عند التأمل فيها وتبعث نوعاً من الكآبة (أو الوجد) يصح لنا أن نسميه ألماً لذيذاً . وسبب هذا اننا نراع أمام هذه الاشياء باللانهاية ويعلونا الشعور بأنا لم نعد فى حضرة جميل بل فى حضرة « جليل » وهذا يحدث فى النفس أولا شعوراً بالضعة ثم يتلوه شعور بالرفعة

٤ ويقابل الجليل « الفكِه »(١) وهو ينشأ من تضاد

---

(١) فى القاموس فكههم بملح الكلام تفكيها أطرفهم بها وفكه كفرح فهو فكه طيب النفس ضحوك أو يحدث صحبه فيضحكهم وقد استعملنا كلمة فكه ترجمة لكلمة Ludicrous للدلالة على الشىء المضحك بنوع من المهارة العقلية كما يدل عليه قول سلى المعرب

أو عدم ملاءمة أو ظهور الشيء بغير مظهره ، كالوقار المصطنع والصلاح المفتعل قال الاستاذ سلى فى آخر كتاب له واسمه « رسالة فى الضحك » : « ان لفظى المضحك والفكه يمكن استعمال أحدهما مكان الآخر الى حد ما مع أمن اللبس ومع ذلك فيحسن أن يلاحظ أن اللفظ الثانى يستعمل عادة فى معنى أدق من الاول اذ الظاهر أن لفظ (الفكه) لا يدل على ما يضحك منه فحسب بل يدل أيضاً على ذلك النوع من المجون العقلى الذى يتضمن ملاحظة ما بين الاشياء من الروابط والنسب ملاحظة واضحة ويتصل تمام الاتصال بما ذكرنا من دلالة كلمة (الفكه) على الجانب العقلى أنه يلاحظ فيها أيضاً الدلالة على المثل الأعلى لما يستحق أن يضحك منه وفيها — كما فى كل ما يثير عاطفة الجمال — اشارة شبه خفية الى قواعد الفن المنظمة للعمل »

والمناظر المحزنة تبعث فى النفس لذة مشوبة برحمة ، لذة يخالطها شيء يشبه الالم وسبب هذه اللذة ان للعواطف الاخلاقية عملا فى هذه الاشياء ، وعلم الجمال يبحث فى كل هذه الاحساسات ، فهو علم الشعور والعواطف والانفعالات

علم الجمال يحد الجميل والقبيح والجليل والهزلى والفكه

ويبحث فى السبب الذى من أجله يظهر الشىء جميلا أو قبيحاً . يبحث فى الجمال المطبوع كما يبحث فى الجمال المصنوع ، أعني انه يبحث فى الفنون[1] وفى جمال الذات وجمال المعنى ، فهو بذلك حلقة الاتصال بين الفلسفة والفن وهو — فلسفياً — جزء من علم النفس

٥ — عمّ ينبعث الشعور بالجمال ؟ هل هناك جمال قائم بنفسه أو أن الشعور بالجمال يعتمد على ما نجده من أنفسنا فى الشىء وعلى ما يظهر به الشىء أمام أعيننا ومن ثم كان الصوت أو المنظر يسر انساناً ولا يسر آخر بل ربما يسوءه ؟ ما خواص الحركات والاشياء التى بها يكون الصوت جميلا منسقاً يلذ السامعين ؟ هل هناك عنصر مشترك فى كل ما هو جميل؟ هذه المباحث وأمثالها هى التى يشتغل علم الجمال بدرسها

---

(١) استعملنا كلمة (الفن) فيما اصطلح عليه الكتاب حديثا أعنى فى مقابلة (العلم) فهم يطلقون (العلم) على القضايا المنظمة المبوبة وأما الفن فيطلق على استعمال العلم فى أغراض عملية فيلاحظ فى العلم الجانب النظرى وفى الفن الجانب العملى فما وراء الطبيعة علم لا فن والخط فن وقد يجتمع فى الشىء الواحد علم وفن فيقال علم الموسيقى وفن الموسيقى فنظريات الموسيقى ومسائله مبوبة علم الموسيقى وأما مباشرة التوقيع على الآلات الموسيقية ففن وبهذا المعنى تطلق الفنون الجميلة على الموسيقى والشعر والتصوير   المعرب

قال الاستاذ « بين » فى كتابه « الانفعالات والارادة » :

« ان الفكرة الاولى فى الجمال تنشأ عن الالوان فالطفل قبل أن يشعر بلذة من جمال شكل أو جمال حركة تأخذ ببصره الالوان الزاهية والصور البديعـة . وانى أميل الى تقرير ذلك عند القرويين فانه تغلب عليهم هذه الفكرة فى الجمال حتى فى تقدير جمال النساء »

ويوضح هـذه الفكرة ان الاجناس البشرية الاولى والاشخاص الذين لا يزالون فى طور الانحطاط ينجذبون نحو الالوان الزاهية فى الجماد والحيوان

ان من أخذوا بحظ قليل من الرقى ولم يصلوا الى حد أن يوجهوا نظرهم نحو أنفسهم يميلون اما الى الالوان القوية (كالاحمر والاصفر) أو الالوان المتنـوعة . أما الراقون المهذبون فيميلون الى الالوان المتلائمة والخفيفة ، تعجبهم وحدة الفكرة التى تنسق الالوان المختلفة والمظاهر المتعددة

والقوة التى بها نميز الجمـال ونقومه هى التى نسميهـا بالذوق وهى ملكة فى الانسان بها يشعر بلذة الجمال منحها الناس على تفاوت فيما بينهم يرقيهـا التهذيب والمدنية فى الفرد والمجتمع الى درجات متفاوتة

٦ — انا لنرى أن الصوت الواحد أو المنظر الواحد لا يؤثر فى السامعين والناظرين أثراً واحداً ، وسبب ذلك — أولا — أن الخيوط العصبية ليست سواء فى التركيب عند الناس وأن الاختلاف بينهم فى المزاج والتربية والعادات كبير ، و — ثانياً — ان الناس مختلفون فى درجة الرقى العقلى — وليست الحواس وحدها تكفى فى ادراك الجمال بل لا بد معها من العقل ، فالحواس وحدها تستطيع أن تدرك الحركات والاشكال والاصوات والالوان على انفرادها ، ولكن لا بد معها من الفكر والشعور ليربطا بعضها ببعض ، ويكونا منها مجموعة واحدة متناسقة الاجزاء — وبهذا أيضاً يختلف الانسان عن الحيوان ، فالحيوان يستطيع أن يدرك ألوان صورة ذات ألوان كصورة العذراء لروفائيل ويسمع الشعر ولكن لا يدرك ما يدل عليه ذلك من عشق ، ولا يشعر بما يمثل من عواطف

هذا هو السر فى أنك ترى انساناً يلقف [١] الجمال ويفهمه فى الطبيعة والصناعة وفى تناسق الاصوات والصور على حين أنك ترى الآخر لا يأبه لكل هذا . هو السر فى أنك ترى الشخص مفتوناً بالشىء لهجاً بذكره بينما ترى

---

(١) يدركه بسرعة

الآخر ضجراً به متبرماً منـه — ترى جماعة يلذ لهم سماع رواية راقية مهذبة ، وترى الآخرين انما يلذ لهم أن يروا منظراً مضحكا فى ملعب . هذا هو السر فى ميل السيدة من الاشراف الى الالوان الخفيفة والقاتمة — أوعلى الاقل — الألوان المتناسـبة ، بينا ترى خادمتهـا السوداء تميل الى الاحمر والاصفر . وذلك لان احداهما لهـا ذوق والاخرى ليس لها أولها ذوق لم يرق بعد

٧ — ولذة الجمال تعلن عن نفسها غالباً بايجاد عمل من الاعمال ، ففى الانسان رغبة متأصلة فى أعماق نفسه تدعوه لأن يوضح ما يشعر به اما بخط أو صوت أو تصوير ، فهو لا بد أن يتكلم ويصور ما فى نفسه ، ومن لم يستطع أن يتكلم أو يكتب أو يؤلف يحاول أن يفعل فيفكر ويشعر بأنه فى حاجة الى ذلك ، ولـكنه لا يجد عنده القوة عليه ، أما من استطاع فلا بد أن يستخدم قواه قال « كارليل » : « لا يمكن أن يوجد ملتن صامت غير مجيد » ونزيد عليه فنقول لا يمكن أن يوجد بيتهوفن أو موزارت صامت لا يطرب بل ولا يوجد ميخائيل انجلو أو روفائيل يرى ولا يصور [1]

(١) ملتن شاعر انجليزى وبيتهوفن وموزارت موسيقيان جرمانيان وميخائيل وروفائيل مصوران ايطاليان

والتأثر -- طبيعياً كان أو عقلياً أو أخلاقياً — اذا شرح بخط أو كلام أو صوت أو تصوير أوحفر أو بناء أو شعر أوموسيقى سمى فنا ، فالفن ملكة يقتدر بها على اظهار العواطف والشعور فى مظهر خارجى . لذلك كان الشعور بالجمال الذى هو صفة قابلة عند الانسان العادى قوة فاعلة عند الفنان ، فان القوة اذا زادت حملت على الفعل وكان صداها العمل — والفنان يستطيع بواسطة الاحجار والالوان واللغة والصوت أن يشرح ما لا نراه فيستطيع أن يشرح لنا المثل الأعلى فيرقى بذلك نفوسنا ويزكيها ويهيج فينا أسمى العواطف ويستخرج منا خير الافعال . والفن يخاطب العقل كما يخاطب القلب . وعلى الجملة يخاطب أعماق النفس الباطنة وكل قوة فينا — الفنان يجمع خواص كل عاطفة وفكرة وملامح ويوضح لنا منها ما لم نكن نفهمه من قبل وهو يرى ما لا يراه غيره ، فيرى المثل الاعلى للشىء ويمثله . وهنا تعرض لنا أسئلة وهى : هل الفن مقلد فقط فيمثل بأمانة المناظر المحسوسة . وهل للفن غرض يرمى اليه أو ان الفن للفن . هل هو مستقل عن الحاسة الاخلاقية (الشعور الاخلاقى) أو يجب أن يكون على وفاق معها .

هذه مسائل شغلت عقول الفلاسفة ونشأت منها نظريات مختلفة منها مذهب الواقع ومذهب الكمال

٨ فمذهب الواقع يرى أن الفن يرمى الى تقليد الطبيعة كما هى وعلى الاقل الى القرب منها جهد المستطاع ، ومذهب الكمال يرى أن الفنان اذ أراد أن يقلد الطبيعة يجب ألا يقلدها تقليداً تاماً بل يتصور الكمال فيها ويخرجها الى الوجود مازجاً فيها الواقع بتصوراته وعواطفه . يحاكى الطبيعة ومع ذلك يعدلها ، يختار من الاشياء ويوفق بينها ويخرجها للناس مترجماً عما فى نفسه . فهذا المذهب يرى أن عمل الفن أن يمثل المناظر الاصلية أو الأخلاق الفاضلة أو الآراء العظيمة بخير مما هى فى الواقع ويجعلها أعظم تأثيراً فى العقول من حقيقتها . يرى أن الفنان تتملكه العاطفة فيحولها الى قوة عاملة فيمثل الشىء لا كما هو ، ولكن كما يدركه

والموضوع الآخر هو هل الفن يجب أن يخضع للغرض الذى يرمى اليه علم الأخلاق أو انه فوق ذلك ؟ ذهب قوم ومنهم «رسكن» الى أن الفن يجب أن يكون أخلاقياً وان أهم ما يجب على الفنان أن يشرك الناس معه فى عواطفه الشريفة

وليس هناك شيء وراء الاخلاق يصح أن يقصد من الفن — وذهب آخرون الى أن الفن انما يبحث عن الجميل لا عن شيء وراءه ، انما يهم الفن جمال الشكل أما الموضوع فليكن ما يكون ، ليكن رذيلة أو جريمة - وذهب بعض علماء الجمال الى أبعد من هذا فقرروا أن « علم الجمال أعلى شأناً من علم الاخلاق » وأن النظر في الجمال والبحث فيه أرقى ما يمكن أن يصل اليه الانسان وان ذوق الالوان أهم في رقى الانسان من الحاسة التي تدرك الخير والشر

٩ والبحث في الجمال أقدم من اسم العلم (علم الجمال) أو الاستتيقى)[1] فقد بحث فلاسفة اليونان في الجمال . وقد غلبت على سقراط الآراء الاخلاقية — كما حكى عنه

---

(١) ذكر المؤلف هنا اشتقاق الاسم الفرنجي لعلم الجمال Aesthetics أو استتيقى وذكر أن أول من استعمل هذه الكلمة بومجارتن ١٧١٤—١٧٦٢م أحد اتباع وولف الالمانى وهو أول من بحث في الجمال وجعله فرعاً من الفلسفة مستقلا واللفظ مشتق من Aestheticos ومعناها الادراك أو المدرك بالحواس فسمى هذا العلم Aesthetics مريداً به الاحساس بالجميل والجميل عنده يدرك بالحواس لا بالعقل كما يدرك المنطق وبقيت الكلمة تستعمل للدلالة على علم الجمال مع أنها صارت تشمل معنى أوسع مما يدل عليه اشتقاقها

زينفون — فعد الجميل مرادفا للنافع [١] ورأى افلاطون فى كتابه « هبياس الاكبر » [٢] ان الجمال شيء آلهي يرادف الخير وانه معنى مطلق مجرد غير قابل للتغير وقرر أن روح الانسان قد تمتعت بالجمال الازلى فى الحياة الاولى قبل أن تحل بالاجسام فى هذا العالم . ومن أجل هذا اذا رأى شيئاً فيه نفحة من الجمال أخذته الروعة لتذكر ما كان فيه ومن رأى أفلاطون أن الجمال معنى فى الشيء مستقل عن حواسنا ولكن العلماء العصريين — ولا سيما من يوم ان ظهر مذهب النشوء والارتقاء — ذهبوا الى أن الجمال ليس معنى فى الشيء نفسه بل معنى يوجده احساسنا وحواسنا، وعلى رأى أفلاطون يكون هناك جمال مطلق تشترك فيه كل الاشياء الجميلة — كذلك أرسطو ألف كتاباً فى الشعر وبحث فيه فى « الفنون » — أما فى القرون الوسطى فلم

---

(١) ليعلم القارىء ان سقراط لم يخلف لنا كتبا وانا مدينون بكل ما نعلمه عنه لتلميذيه زينفون وافلاطون وقد نقلا بعض تعاليمه بعبارة من عندهما فزينفون نقل ذلك فى كتابه المسمى — ذكرى سقراط — وافلاطون فى المحاورات وكثيراً ما يتعذر على قارىء المحاورات ان يفرق بين ما هو منقول عن سقراط وما هو لافلاطون نفسه المؤلف

(٢) مما يشك فيه نسبة — هبياس الاكبر — الى افلاطون المؤلف .

يوجهوا أى التفات الى « علم الجمال » — ثم كان لما اشتهر
به الانجليز من الذوق الفطرى أثر فى الفلسفـة الانجليزية
وفى نظريات علم الجمال ، ففى الفلسفة كانت همة فلاسفتهم
موجهة الى التجارب ولم يكونوا يعنون النظر فى الاشياء
نفسها وانما فى تأثير هذه الاشياء فى حواس الانسان
وطباعه وطبيعته ، وكان علم الجمال عندهم فرعا من فروع
الفلسفة التى اهتموا بها . وفى علم الجمال كان أول بحث
علمائهم فى التأثير الذى يحدثه التأمل فى الجمـال ثم انتقلوا
منه الى البحث فى الصفات التى يجب أن يتصف بها الشىء
ليكون له ذلك التأثير

ومن الفلاسفة الذين رقوا نظريات هذا الفرع من
الفلسفة : لوك وكدورث وهوم وهوجارت وبرك
وشافتسبرى وهتشسون وريد ومن الالمـان : فنكلمان
ولسنج وهردر وكانت و « كانت » هو القائل فى كتـابه
« نقد العقل المجرد » : (يجب الا نبحث أولا فى الجميل
نفسه بل فى حكمنا الشخصى وذوقنا) وهو الذى قرر كما
ذكرنا قبل ان لذة الجمال يجب أن تكون مقصودة لذاتها
لا لغاية وراءها . وجاء الشاعر « شلر » فرقى نظريات « كانت »
وكان يرى أن حاسـة الجمال ليست الا عند الانسان وقد

تبين خطأ هذه بواسطة « علم النشوء والارتقاء » ومن آراء شلر ان أصل الفن هو ميل الانسان الى اللعب ، وقد بحثت هذه النظرية بعدُ بحثاً أوسع مما ذكره شلر . وهنا يحسن بنا أن نذكر من الفلاسفة غير من ذكرنا هجل وشلنج وشوبنهور وفخنر الالمانيين ، وتين الفرنسى ، ورسكن الانجليزى ، وهيبدنج الدانيمرقى وبيلنسكى الروسى ، الى غيرهم ممن لا تسعه هذه الرسالة

الفصل السابع

علم الاخلاق

١ اذا كان علم النفس يبحث فى الانسان كما هو وفى افكاره وأعماله كما هى، فعلم الاخلاق يبحث فيما ينبغى ان يكون عليه الانسان وماذا ينبغى ان يعمل وبأى شكل يشكل حياته — منح الانسان كثيراً من القوى والملكات وله ميول كثيرة، ورغبات ولحاجات عديدة . وهو ليس بمخلوق قد رسم له نوع من العمل يعمل فيه باستمرار فحسب بل هو مخلوق حر له السلطان التام على اعماله،ففى استطاعته أن يوجه ارادته واعماله الى اى جهة أراد، وان يعامل بنى نوعه كما يشاء؟ ينفعهم أو

يضرهم،وفى حق نفسه يستطيع أن يكون مجداً أو كسولا ، عاملا أو لاهياً — وارادة الانسان وأعماله لابد معها من مقصد ، ويستحيل اراده عمل من غير غرض أو مقصد يقصده بعمله وعلم الاخلاق يبحث فى المقصد والغرض الذى ينبغى أن يكون والذى يحاول الانسان أن يناله بأعماله واليه يوجه ارادته — وان مامنحه الإنسان من قوة الفكر العجيبة — التى بها يستطيع أن يبحث في ماهية نفسه — يؤهله للنظر فيما هو الغرض من وجوده ووضع قوانين وقواعد لسلوكه وأعماله وعدّ بعضها حسناً والآخر قبيحاً — ولا بد له من اعمال الفكر لمعرفة تلك القواعد . ومجموع هذه الافكار يسمى علم الاخلاق فهو يبحث فى مصدر الاعمال والباعث عليها والمقصد منها وقوانينها — يبحث فى أعمال الانسان الاختيارية ومصدرها وفى الحكم الاخلاقى والعواطف ومظاهرها فى الحياة .

٢ ما البواعث التى تدفعنا الى الاتيان بعمل معين فى ظروف خاصة دون أن تدفعنا الى غيره من الاعمال ؟ من أين نعرف الخير والشر والى أين توصلنا هذه المعرفة ؟ تلك اسئلة يتكفل بالاجابة عنها علم الاخلاق

يظهر أن فى الانسان صوتا باطناً يوحى اليه بما ينبغى

أن يفعل و يميز به بين الحق والباطل ، والحسن والسيء ، والنافع والضار والاخلاقي[1] وغيره. و يسمى هذا الصوت بالوجدان. وهو نوع من الشعور الباطني ليس يخضع لسلطان خارجي ، وهذا الشعور هو الذي كان يحمل الناس على السير في طرق خاصة قبل أن تبحث النظريات الاخلاقية بحثاً فلسفياً بأزمان طويلة ،وهو ناشيء اما من غريزة في الانسان ، واما من المعتقدات الدينية ، واما من احكام تواضع بعض الناس عليها وقرروا العمل بها ، لما رأوا فيها من الخير والمنفعة العملية لهم. وتأكدت هذه الاحكام بالجرى عليها ، ثم أجبر الناس على العمل بمقتضاها وصارت فيما بعد عرفا وعادات ، وأصبح العمل على وفقها اخلاقياً ، وانتهاك حرمتها مخالفاً للاخلاق. قال زجلر: « العرف مجموعة أعمال محدودة تواضع الناس عليها اعتباطاً ونمت في اوساط خاصة سيما في المجتمعات الطبيعية والجنسية كالعشيرة والقبيلة ثم صار يعد انتهاكها تعديا على الآداب واتباعها فضيلة »

٤ وبعد ان جمع علم الاخلاق عادات الامم وخصالها ورتبها وقسمها لم يقنع بحقائقها مجردة بل أخذ يبحث في

---

(١) يقال عمل أخلاقي اذا كان يتفق مع ما تأمر به الاخلاق وارتكبنا فيه النسبة الى الجمع خوفا من اللبس المعرب .

« من أين ؟ » و « لم ؟ » و « الى أين ؟ »

ابتدأ هذا العلم ببيان عادات الامم ونظمها واستحسن بعضها واستقبح بعضا [1] وكما كانت اللغة سابقة على قواعد النحو كذلك موضوع الاخلاق كان قبل أن يبحث فيه علم الاخلاق ، ثم جاء هذا العلم فاجتهد فى استنباط قواعد يهتدى بها الانسان فى افعاله

لهذا كان علم الاخلاق يمتاز عن الفلسفة النظرية بأن بحثها قاصر على ما كان وما هو كائن وما سيكون ، اما علم الاخلاق فيزيد على ذلك أنه فلسفة عملية يجتهد فى تقرير ما ينبغى أن يكون فهو علم سلوك الانسان وعاداته

٤ ان قليلا من الخبرة يكفى فى ارشادنا الى أن الانسان ليس مطالباً أن يعمل كما يشاء، حينما يشاء، ولا أن يعمل كل مايستطيع ان يعمل بل هو على العكس من ذلك، فكثيرا ما يطالب ان يتجنب عمل مايسره و « أن يخضع ارادته لارادة غيره » وأن ينظم ارادته ويشكلها على حسب ظروفه الاحوال وتاريخ الامم كذلك يرينا أن الناس اختلفوا ولا

---

(١) أبان المؤلف هنا اشتقاق الكلمة الافرنجية المستعملة اسما لعلم الاخلاق Ethics وأنها مأخوذة عن اليونانية من كلمة معناها « الخلق » وفيها اشارة الى العادة والعرف

يزالون مختلفين فيما هو الحسن والسيء والاخلاق وغيره ، وان العمل الواحد قد يكون فى حالة حسناً وفى حالة قبيحاً ويكون اخلاقياً فى مكان أو زمان ومستهجناً فى مكان أو زمان آخرين — لذلك كان من عمل علم الاخلاق أن يحدد لنا الحسن والسيء ويبين لنا ان كانا يتغيران بتغير الازمان أوهما ثابتان لا يتغيران ، مع تغير العصر والانسان

٥ وعلى الجملة فعلم الاخلاق يوضح لنا الحياة الاخلاقية ويعين الوسائل لامتحان الآراء الاخلاقية التى تظهر فى شكل عرف وعادات ، ويعيننا على معرفة الغاية الاخيرة للحياة ، ويساعدنا على النظر فى النظم لابقاء ما يصلح منها للبقاء واصلاح الفاسد ، ونبذ مالا يصلح ، ويبين المقياس الاخلاقى الذى به نحكم على الاعمال وبه نهتدى فى ميولنا وأفعالنا. وليس غرض هذا العلم قاصراً على معرفة مجهودات الانسان واشكال المعاملات وتأثيرها فى حياتنا، بل من غرضه ايضاً التأثير فى ارادتنا، وهدايتها ، واستكشاف علة الحياة الاخلاقية ، وتقويم الاشياء على قدر اعتمادها على ارادتنا وارشادنا الى كيف نشكل حياتنا ونصبغ اعمالنا حتى نحقق المثل الاعلى للحياة، ونحصل خيرنا وكمالنا ومنفعة الناس وخيرهم — ويتذكر القارىء انا ذكرنا فى تمهيد الفصل الاول ان

الحق الذى يكتسب من النظر الفلسفى ليس قاصراً على التأمل المقيم بل نهاية هذا التأمل أن يستخدم فى الحياة العملية ، ونزيد هنا ماقاله الاستاذ بولسن فى كتابه « نظام علم الاخلاق» : «ان المقصد الاخير الذى دفع الناس الى التأمل فى طبيعة العالم سيظل دائما هو الرغبة للوصول الى نتائج ترتبط بمعنى حياتنا ومنبعها والغرض منها فأصل الفلسفة كلها والغرض منها يجب ان يتطلب اذن من علم الاخلاق »

٦ ذكرنا قبل ان سقراط وجه فكر اليونان الى البحث فى الانسان وكانت الفلسفة قبله منصرفة الى العالم المادى — ومع أن سقراط فعل ذلك فقد كانت الإفكار الاخلاقية منثورة فى أقوال الشعراء على شكل حكم وأمثال (ولم يكن ثم علم خاص بها) ولذلك كان أول ظهور الشعور الاخلاقى[1] عند اليونان انما هو فى شعرهم ، وكان كما قال الفيلسوف الفرنسى بول جانيه : « ان الشعراء كانوا أول لاهوتى[2] عند اليونان كما كانوا أول واعظ » — أما البحث الحقيقى فى الحقائق الاخلاقية فأول من بدأ به عند

(١) نعنى بالشعور الاخلاقى الشعور بالخير أو الشر وبعبارة أخرى الشعور الذى يصحب الانسان عند اتيانه بعمل خير أو شر

(٢) اللاهوتيون رجال الدين

الغربيين أفلاطون وأرسطو ولاسيما أرسطو — ولكن أحداً منهما لم يخترع الحكم الاخلاقى على الاشياء ، فقد كان الناس قبلهما بأزمان طويلة يحكمون على عمل بحكم وعلى غيره بآخر ، ويميزون بين الحسن والسيء ، والاخلاقى وغيره ، وانما البحث العلمي يجمع الحقائق ويبحث فى البواعث والعلل ، فيبحث مثلا فى لماذا كان القتل أو السرقة رذيلة ولم كان الكذب غير أخلاقى والصدق أخلاقياً

ابتدأت الفلسفة الاخلاقية عند اليونان بقولها ان هناك خيراً عظيما يجدّ الانسان للوصول اليه ، ويقصد الحصول عليه لذاته لا لأنه وسيلة الى شيء غيره ، ويمكن تحصيل ذلك الخير بالعمل ، ويجب أن تنتظم أعمال الانسان بملاحظة ذلك الخير ، وهذا الخير هو السعادة وهى الغاية القصوى لأعمالنا ، وكل غاية غيرها تابعة لها ، ولنسم هذه النظرية « نظرية السعادة » وهى تقول « ان السعادة أعظم خير للانسان والغاية الاخلاقية من سلوكه » وبعد أن سلم بهذه النظرية أى ان أعظم سعادة للشخص هى أعظم الخير له تساءل فلاسفة الاخلاق اليونانيون : ما أعظم سعادة للشخص وما خير الوسائل التى عساها توصل اليها ؟ على هذين السؤالين أجيبت أجوبة مختلفة — رأى سقراط —

ذلك الفيلسوف الذى لم يشأ أن يشغل نفسه بالبحث فى
أصل العالم وتكوينه بل وجه عنايته نحو الانسان وما يتعلق
به - ان أعظم سعادة هى معرفة الحق وأن المعرفة هى
الفضيلة ويمكن أن تكتسب بالبحث، وقرر أن لا أحد
يعمل غير الحق بارادته، أو يختار الباطل اذا هو علم
الحق — وعند ما يرتكب الانسان خطأ فانما يكون ذلك
لجهله بالخير له. والحكيم العارف هو وحده السعيد الفاضل،
وافق الرأى العام والمأثور والعرف أو خالف، لأن المعرفة
هى الغاية القصوى للانسان وهى بعينها الخير والفضيلة —
أما العدل والفضيلة الناشئان عن محض الاعتياد والتربية
- اذا لم يعتمدا على المعرفة والنظر — فتلمس فى الظلماء
قد يؤدى عفواً الى الحق ولكن ليس فيه مقنع انما ما فيه
المقنع ان تجد فى البحث للوصول الى معرفة الخير وتحديده

وقد ذكر أفلاطون فى كتابيه «جورجياس»
و «الجمهورية» ان «كليكليس وترازيماخوس» قالا ان
الخير ما يسرنا والعدل ما استطعنا الحصول عليه ولكن
افلاطون (الذى يدعى أنه ليس الا معيداً لتعاليم سقراط)
أنكر رأيهما وذهب الى أن الخير والعدل معنيان آلهيان
قائمان بأنفسهما مستقلان عن الفكر وكانت طريقته فى

البحث الاخلاقى طريقة لامادية [١] — ومن تعاليمه ان فن السلوك انما يحصل بالجد فى جعل الحيـاة الخاصة والعامة بحيث يسود فيها الوفاق والجمـال والنظام وهى الصفات الأساسية التى هى من خصائص العالم الاعلى وفى تقليد الخير المطلق الذى كانت النفس — التى هى جزء من النفس الـكبرى للعالم — تنظر اليه وجها لوجه قبل ان تحل فى الجسم [٢] ويمكن نيل هذا بالمران على فضائل أربع : الشجاعة والعفة وأهم من هذين الحـكمة والعدل . ويبلغ العدل

---

(١) نسبة الى ماوراء المـادة

(٢) كان يغلب على فلسفة افلاطون نظرية « المثـال » فقد كان يرى أن لـكل موجود مشخص فى العالم الحسى مثال موجوداً غـير مشخص فى العالم العقلى وهذه المثل تسمى «المثل الافلاطونية » يوضح ذلك مثلا رأيه فى الجمـال فقد كان يرى أن هناك جمـالا أزلياً وهو معنى قائم بنفسه غير قابل للتغير (وهذا هو المثال) قد تمتعت الارواح به قبل أن تحل فى الاجسام وما نسميه جميلا فى عالمنـا هو ما فيه نفحة من ذلك الجمـال الازلى المطلق وكذلك قال فى الاخلاق فقد قال ان من بين هذا المثل « مثالا للخير » وكلما قرب هذا السلوك من هـذا المثال وسطع عليه ضوءه كان اقرب الى الفضيلة وفهم هذا المثال يحتاج الى رياضة النفس وتهذيب العقل ومن ثم لا يدرك الفضيلة فى خير اشكالها الا من كان فيلسوفا — هذا مجمل رأى أفلاطون فى هذا الموضوع ولعله يعين على فهم ما فى الاصل المعربه

منتهى الكمال فى نظام الحكومة ، وقد أوضح افلاطون المثل الاعلى لهذا النظام على وجه الاجمال فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين »

أما ارسطاليس — سيد المفكرين على الاطلاق — كما لقبه بذلك أوجست كومت فى احد كتبه — فابتدأ بحثه فى الاخلاق بما ابتدأ به افلاطون فبحث فى «ما هو أعظم خير للانسان » « وما غايته القصوى وما غرضه ؟ » وكان من تعاليمه ان الانسان من بين سائر الموجودات هو الذى جمع الى قوة الشعور والرغبة قوة العقل . وهو بحسه وادراكه يشبه الحيوان، وبعقله يشبه الله، وباتحاد تلك القوتين فيه كان كائنا اخلاقيا، فان الاخلاقية هى الاتفاق بين عناصر الحيوان والعقل ، واستعمال كل قوى الانسان تحت سلطة العقل ، وليس الذى يخضع لهذه الاخلاقية هو من يعيش فى عالم الفكر فحسب بل الذى يشغل بالعمل ويكون لرغبته وانفعالاته عليه سلطان — ولأجل أن يختار الانسان طريق الحق وينهج النهج القويم يجب ان يستعمل قوة الحكم عنده وقوة عقله ويستخدم ارادته الحرة

هذا الاتفاق بين ارادة الانسان وعقله ينتج الفضائل

الاخلاقيــة أو السعادة أو أعظم خير ، وهــذا هو غرض الانسان فى الحياة — وبينا سقراط يرى ان الفضيلة نتيجة العقل وحده وليست نتيجة التربية ولا العادة وانمــا هى ثمرة الحــكمة وبعد النظر الاخلاقى اذا بأرسطو يرى أن التربية والمران والعادة ضرورية أيضاً فى تـكوين الفضيلة ويحدد الفضيلة بأنها « عادة ثابتــة مقررة ينتجها المران ويكونها تغلب العقل وهدايته » — خلف من بعد هؤلاء الفلاسفة العظام خلف كان لهم أثر فى ترقية ما قرره سلفهم ولا بد أن نخص بالذكر منهم «الرواقيين» و «الا بيقوريين»

فمذهب الرواقيين اسسه « زينون »وكان يعلم تلاميذه فى رواق منقوش من بناءفى«أثينا» . ومن أجل هذا سمى هو وأصحابه بالرواقيين — وقد بنى « زينون » تعاليمه على قول سقراط بعدم الاعتداد بالمأثور والرأى العام ، وعلى القول بسلطان العقل على الشهوة ، فكان يرى ان الفضيلة فيها الغناء عن كل شىء، وان الحـكيم يقضى حياته فى وفاق مع الطبيعة مستقلا حرا ، بين جنبيه نفس تعتز عزة ملك وان التحف ببردة فقير — رأى الحـكيم انه لا يستطيع ان يغير الطبيعة ففضل ان يخضع لهــا عن رضا ، ولم يفعل كما يفعل الأخرق ينازل الطبيعة ويكافحها حتى يفقد قوته

ويدركه الاعياء فيخر صريعاً — والرواقى مستسلم لا يهيجه شىء [1] لانه يعتقد أن كل شىء قدرته الطبيعية ، وهى رحيمة عادلة تريد الخير

أما أبيقور (٣٣٧ أو ٣٤١ — ٢٧٠ ق م) فكان يعلم ان لا خير للانسان الا اللذة، والعقل يساعده على تحصيلها. وكان أبيقور كسائر فلاسفة اليونان يسلم بأن الاخلاقية [2] والسعادة مترادفان وان فن السلوك [3] فن يعلم الانسان كيف يروى نفسه باللذائذ. وعنده ان لا معنى للاخلاقية الا الفهم الصحيح لفائدة الانسان الشخصية وبعبارة أخرى الاثرة (الانانية) المهذبة . واذا ضحى الانسان بنفسه او آثر غير بشىء، فليس معنى ذلك أنه يعمل على خلاف طبيعته

---

(١) والغربيون الان يطلقون اسم « رواق » على من اعتاد أن يقابل كل الاشياء بهدو وطمأنينة رغم ما يحيطها من خطر وألم (المعرب)

(٢) استعملنا كلمة « اخلاقية » ترجمة لكلمة Morality ونعنى بها الصفة التى فى الشىء ومن أجلها يحكم عليه بأنه خير أو شر فاذا قلنا أخلاقية العمل أو الانسان أو الامة فانما نعنى الصفات التى يتصف بها العمل أو نحوه ويحكم عليه من أجل اتصافه بذلك — بأنه خير أو شر وقد يستعملونها فى معنى أضيق فيقصرونها على الصفات الحسنة فقط التى يتصف بها العمل فيحكم عليه بأنه خير وبهذا المعنى استعملت هنا (المعرب)

(٣) يقصد بفن السلوك الجزء العملى من علم الاخلاق

أو يعاكس رغبته فى اللذة المتأصلة فى أعماق نفسه ، بل انه انما يفعل ذلك لما عنده من قوة التفكير ، ذلك لأنه لما كان عاقلا كان فى استطاعته أن يرفض لذة وقتية عاجلة للحصول على لذة أكبر منها آجلة . وان اللذائذ السريعة الزوال والانهماك فى الترف لا تعد شيئاً اذا قيست بتلك اللذة الباقية — لذة العقل — التى بها تطمئن النفس ومنها تتخذ عدة لحوادث الدهر وصروف الزمان

واذ كان بعض اللذائذ يعقب ألماً كان لا بد من تنظيم رغبتنا فى اللذة بالحزم ومن ذلك تنتج جميع الفضائل — فان صحة البدن واطمئنان العقل أعظم سعادة فى الحياة ، وهما نتيجة ما ذكرنا ، « ونحن لا نستطيع أن نحيا حياة لذة ما لم تكن حياة حزم وشرف وعدل كما انا لا نستطيع أن نحيا حياة حزم وشرف وعدل ما لم تكن حياة لذة » وقد نضطر أحياناً الى تحمل ألم وقتى للحصول على لذة مستمرة. — وليس يعنى أبيقور باللذة الاحساسات الوقتية التى تفنى بفناء ظرفها وانما يعنى السكينة والعيشة الراضية التى فيها نأمن عواصف الحياة[1]

(١) غلط بعض الناس فى فهم مذهب ابيقور فظنوه يدعو الى الانهماك فى اللذات الجسمية والجرى وراء الشهوات حتى أطلقوا « أبيقورى » على الداعر المولع باللذات الجسمية   المعرب

ولما لم يكن من طبيعة نفس الانسان الاقتناع بالفلسفة طويلا جاء الدين فحل محلها وقام الاولياء والقديسون مقام الشعراء والفلاسفة اليونانيين — وأثارت النصرانية ثورة لم يشهد الانسان قبلها مثلها ، فغيرت الافكار تغييراً تاماً حتى لم تستطع عقائد اليونان أن تقف أمام سلطانها ، ونبذت أكثر التعاليم الاخلاقية التي وضعها قدماء الوثنيين فكانت النصرانية كما قال « نيتشه » : «مقومة للاشياء من جديد»

وقد عممت النصرانية — الى حد ما — تعاليم اليهودية ونشرت فى المغرب أصول الاخلاق التي وردت فى التوراة — والاخلاق عند اليهود الهية المنشأ ، فالمبادىء الاساسية فيها دينية وليست الاخلاقية الا نتيجة أمر الله ومن فيضه ، وبعبارة أخرى هى تنفيذ أمر الله — نعم ان الانسان محتاج الى قواعد وقوانين تنظم سلوكه ولكن لا يشرع هذه القوانين والقواعد الا الله . وهم يرون أن الخير الاخلاقى وارضاء الله لا ينفصلان ، وأن فروض الله والقوانين الاخلاقية متلازمان وليس الشىء أخلاقياً لأن الله أمر به بل الله أمر به لأنه أخلاقى ، فان الاخلاقية هى المركز الاساسى ومطمح نظر العالم قال « هرمن لوتز »الفيلسوف الالمانى العصرى فى كتابه الشهير « العالم الصغير » : « ان

العبرانيين — على ما يظهر لنا الآن — كانوا بين الامم الشرقية المحكومة بحكومة دينية كالصاحى بين قوم دبت فيهم الكاس ونال منهم الشراب وان كانوا فى القديم قد عدوا كالحالمين بين العاملين. وان التعهدات والالتزامات الاخلاقية التى يرقى الشعور بها الاعمال الاجتماعية كانت فى اليهودية تنحصر فى ارادة إله وارادة الله يجب أن ينفذها الشخص ويمجدها فى سره وجهره بل كذلك الامة — من حيث هى أمة — يجب أن تنفذها وتمجدها بخضوعها فى حياتها لحكومة ونظم دينية »

من أهم المباذىء حب الله واطاعته وحب الانسان وهى مبادىء تتطلب التحلى بفضائل كالعدل والاحسان. وبينا نرى علم الاخلاق عند اليونان يعد الغاية القصوى للانسان كمال شخصه باستعمال كل قواه وملكاته الطبيعية حتى يصل الى السعادة اذ نرى الاخلاق النصرانية تطلب من الانسان السعى وراء طهارة النفس فى الفكر والعمل، وتجعل للروح سلطة مطلقة على البدن وعلى الشهوات الطبيعية ، وهذه الروحانية أدت الى انكار حقوق البدن واعتزال هذا العالم ونبذ الحياة الطبيعية واحتقارها ، كما أدت الى الزهد والتنسك والرهبانية ومحالفة الفقر وتحمل

الآلام البدنية ، وعلى الجملة فقد أدت الى « حياة غير طبيعية » — وشيء آخر جديد و و عقيدة « النجاة بالغفران » وهي مبنية على أن الانسان آثم بطبيعته وليس في استطاعته الوصول الى النجاة بقوته وجده وانما ينال النجاة بالغفران . وذلك الغفران تمنحه الكنيسة بطريقة استبدادية محضة ، وبذلك انهارت أصول التعاليم والعقائد التي وضعها مؤسس المسيحية بالاغلاط التي ارتكبها أتباعه وأصبحت الآن الرسوم والمظاهر الدينية ، في النصرانية واليهودية ، أهم بكثير من الاخلاق وطهارة الحياة في الفكر والعمل ، وقد كان انما يقصد من هذه الرسوم والمظاهر في الاصل أن تكون رمزاً

٧ أما الافكار الاخلاقية الحديثة فيرجع اصلها الى « مارتن لوثر » ذلك الراهب الشجاع الذي ظهر في « وتنبرج[1] » وتمتاز بميلها الى « الواقع » والحقيقة لا الخيال ، وترى ان غرض الانسان هو اظهار كل ما فيه من قوى وملكات بالحياة العملية في هذا العالم . وعلى هذا بنيت الفلسفة الاخلاقية الحديثة ولا سيما المذهب الانجليزي فيها ، وانفصلت الاخلاق بالتدريج عن الدين وصارت علما فلسفياً . ومن

---

(١) وتنبرج بلدة ببروسيا على نهر الب

أكبر من بحث فى هـذا الفرع من الفلسفة لوك وهوبز وشافتسبرى وهتشسون وهيوم وآدم سمث فى انجلترا واسكتلندا — وسبينوزا وليبنتز وولف فى المانيا . وسنذكر الموضوعات التى اثاروها ، والمسائل التى بحثوها فى فصل تال يبحث فى المذاهب الاخلاقيـة . وقد جاء «كانت» بكتابه «نقد العقل المجرد» سنة ١٧٨٨ م فوجه البحث الاخلاقى وجهة جديدة ، ذلك أنه قرر أن الانسان يحمل بين جنبيه وفى نفسه منبع القانون وروح الاخلاق، وهذه الروح الاخلاقية مستقلة عن التشريع ولا تستمد أى شىء من الخارج ، ويسمى هذا المبدأ الاخلاقى المستقل «بالأمر المطلق» (١) ونحن اذا اخضعنا ارادتنا لهذه الروح

(١) ربما كان فيما حكى عن مذهب «كانت» غموض ولتوضيح ذلك نقول ان «كانت» يقول ان العقل فى الانسان هو أساس الاخلاقية «ولسنا فى حاجة الى تعلم قواعد للسلوك تكتسب من الملاحظة والتجربة والتربية بل ان عقلنا يعلمنا ويأمرنا فوراً بما ينبغى أن نعمل» وذكر مبدأ سماه «الامر المطلق» أى الذى لا استثناء فيه وهو «اعمل دائماً العمل الذى يمكنك أن تريد أن يكون عاماً» أى اعمل ما تحب أن كل أحد غيرك يعمله وقال ان هذا المبدأ يحمل سلطانه معه أى انه فى نفوس الناس وطبيعتهم ومنه يمكننا أن نستنتج كل ما ينبغى أن يعمل كتسديد الدين وبذل المعونة عند الشدائد والصدق وهكذا (المعرب).

الاخلاقية التى فينا ولذلك الآمر المطلق ولو خالف ميولنا فقد أدينا ما علينا من الواجب وسرنا سيراً اخلاقياً، وخلف «كانت» «فختـه» وجاء «هجل» و «شلر ماخر» وشوبنهور وفريدريك نيتشه وداروين وجون ستوارت مل وهربرت سبنسر فظلوا يعملون على ترقية المسائل الاخلاقية ويضعون نظريات جديدة من عندهم

الفصل الثامن

علم الاجتماع (سسيولوچيا)

١ «ليس خيراً للانسان أن يعيش وحده» ولا نعيم الجنة نفسه يلطف وحشة الوحدة . بل ومعيشة الانسان وحده ضد طبيعته وهو محتاج الى بنى جنسه لسد حاجاته الطبيعية ومعاونته على ضروريات الحياة . ولهـذا اجتمع معهم وتعارف بهم وحالفهم . وانا اذا تتبعنا تاريخ الانسان من اقدم عصوره لوجدناه فى أى زمان ومكان يتجنب الوحدة ويألف الاجتماع فيعيش فى جملة جمعيات ؟ فى اسرة، وفى فصيلة ، وفى عشيرة ، وفى قبيلة أو امة ، ويشترك مع غيره فى انواع شتى من العمل . وبعد فما ظروف الاحوال التى اقتضت اجتماع الناس وبأى شكل كان اجتماعهم ؟

ما أنواع الاعمال التى يشترك فيها الانسان مع غيره ؟ كيف يؤثر الناس بعضهم فى بعض ؟ ما أنواع العلاقات التى بينهم ؟ وأخيراً ما القوانين التى بها ترقى الحياة الاجتماعية ؟ هذه الابحاث التى تفيد الانسان أعظم فائدة كما قال « كومت » هى التى تسمى « علم الاجتماع » . ولئن كان من فروع الفلسفة ما يبحث فى أصل الكائنات وعللها ومبادئها (كعلم ما بعد الطبيعة) وما يبحث فى الانسان من حيث شخصه ، فيبحث فى أصله وعلاقته بسائر الحيوانات (كعلم الانسان — الانثروبولوجيا) وما يبحث فى أعمال روح الانسان من حيث هو كائن ذو شعور ، وفى سعيه وراء معرفة نفسه (وهو علم الاخلاق والنفس) فهناك ما يبحث فى الانسان من حيث علاقته بالمجتمع الذى فيه ولد ، كما يبحث فى الظواهر التى نشأت عنها المعيشة الاجتماعية — وهذا هو علم الاجتماع — فهو ذلك النوع من البحث الذى يشمل علم الجمعية والاجتماع أو الانسانية مجتمعة ، وان شئت فقل الانسانية موحدة أو مؤلفة من وحدات الافراد الذين توثقت الرابطة بينهم على نحو ما ، وهو ينظر الى مجموع النوع الانسانى على ما هو عليه وكما كان وكما سيكون ، ويوضح أعمال الجمعية البشرية وتفاعل القوى الاجتماعية . وبعد

أن يستكشف القوانين التي بها ترقى تلك القوى يجتهد فى تنظيمها لخير المستقبل . ويمكننا الآن أن نقول ان علم الاجتماع يحاول استكشاف القوانين والمبادىء وسر الظواهر الاجتماعية ويستخدم ذلك فى خير الانسان

٢ وأول من استعمل كلمة « سسيولوجيا » للدلالة على علم الاجتماع « أوجست كومت » وهى مركبة من « سوسيس » كلمة لاتينية معناها الجمعيـة و « لوجوس » كلمة يونانية معناها علم ، وقد كان علم الاجتماع سابقاً على اسمه هذا[1] — ولم يكن علم الاجتماع — كما هو الشأن فى كل العلوم الأخرى فى طورها الأول — علماً نظرياً محضاً بل كان يبحث أيضاً فى مسائل عمليـة عرفت باسم « علم السياسة » وقد قيد افلاطون آراءه فى الحكومة واشكالها وأوضح المثل الاعلى[2] لها فى كتابيه « القوانين » و« الجمهورية »

(١) كان اوجست كومت أول من بحث فى الاجتماع فى العصور الحديثة وكان يسمى هذا النوع من البحث عند اليونان « الحكمة العملية » وقد اعترض على « كومت » معاصروه عند وضعه نظريات لهذا العلم بأنه لا يمكن وضع نظريات ثابتة له لان الانسان ذو ارادة حرة لا تجرى فى أعمالها على قوانين معينة ثم ظهر بطلان هذا الاعتراض ودون للاجتماع قوانين برهن على صحتها — المعرب

(٢) المثل الاعلى ترجمة لكلمة Ideal ونعنى بها أكمل صورة

وحدد الغرض الاخلاقى للحكومة كما ارتآه . وجاء ارسطو فلم يعتقد بالمثل الأعلى للحكومة ولا بالعصر الذهبي الذى حلم به أفلاطون واجتهد فى كتابه «علم السياسة» أن يحلل اشكال الحكومة التى كانت فى عهده ، وقسمها من حيث عدد حكامها الى ثلاثة أقسام : حكومة ملكية ، وحكومة ارستقراطية ، وحكومة شورية [1] — وتدرج ارسطو من القول بأن «الانسان مدنى بالطبع أو حيوان سياسى» أعنى أنه فى طورى سذاجته ورقيه لا يستطيع أن يعيش وحده بل لا بد له من الاجتماع الى القول بان النظام الحكومى للأمة نتاج طبيعى . قال « كومت » : « ان ما فنده ارسطو ما لأفلاطون ومقلديه من أوهام باطلة فى موضوع الاشتراك فى الملكية برهن على ما لأرسطو من سداد فى الرأى وذكاء وقوة لا تسبق وقلما تبارى »

فى ذهننا للشيء يراد احتذاؤها فاذا قلنا المثل الاعلى للامة فأنما نعنى اكمل صورة فى ذهننا للامة نريد أن نكون عليها يوماً ما وهكذا — المعرب

(١) عند ارسطو اذا كانت القوة المسيطرة على الامة فى يد فرد واحد تسمى الحكومة ملكية Monarchy واذا كانت فى يد جماعة قليلين من الاشراف سميت الحكومة ارستقراطية Aristocracy واذا كانت فى يد الشعب فالحكومة شورية Polity — المعرب

ولم يزد فلاسفة الرومان شيئاً فى النظريات السياسية عما كان لليونان. وفى القرون الوسطى كان للدين على النفوس نفوذ عظيم وشغل الناس بالقضايا الدينيـة حتى لم يبق لهم زمن للنظر فى الموضوعات الاجتماعيـة ، الى أن جاء زمن «النهضة» فكان للناس بعدُ عناية خاصة بالمسائل الاجتماعية (وبحثوا فيما وصل اليه من قبلهم وزادوا عليـه) فمسائل « الحقوق الطبيعيـة » مثلا بحث فيهـا قدماء الفلاسفة والمشرعين ، ومما جاء فى قول شيشرون (الخطيب الرومانى) « ان السلوك العام هو قانون الطبيعة » أى أن اتفاق كل الناس على شيء يجب أن يعد قانون طبيعة وفرق «اُلبيان» (المشرع الرمانى) مثلا بين « الحق الطبيعى » و « الحق المكتسب من القـانون » — قانون الامة — فلما جاءت النهضة خطت هـذه القضايا خطوة خرجت بها من دائرة النظر الى السياسة العملية ، وكان «هوجو جروتيس» أول من بدأ بالبحث فى « الحقوق الطبيعية والوضعية [١] »

---

(١) يعنون بالحقوق الطبيعية الحقوق التى منحها الناس من طبيعتهم وليس القانون الوضعى هو المانح لها وبعبارة أخرى الحقوق التى للانسان لانه انسان وكانت للانسان قبل ان تكون قوانين أما الحقوق القانونية أو الشرعية أو الوضعيـــة فالحقوق التى منحتها له القوانين الوضعية لحق

ولذلك يعد مؤسس « فلسفة القانون »

جاء بعده «توماس هوبز» وكان مما كتبه « رسالة فى الجبر والاختيار » بحث فيها ابحاثاً أخلاقية وابحاثاً فيما وراء المادة وقرر فيها أن الانسان — كسائر المخلوقات — مجبور خاضع للقدر ، وبعبارة أخرى لأرادة الله ، وأن المصلحة أو الفائدة الشخصية أعلى قاض يفصل فى الاخلاق وفى أى شيء آخر ، وقد طبق نظرياته هذه على السياسة ، فعنده أن نظام الطبيعة نظام حرب عام — كل يحارب كلا ليبقى «والحق» «للقوة» — وللمحافظة الانسان على نفسه ، ووضع حد لهذا النزاع ، وتلطيف نظام الطبيعة بالاجتماع تعاقد الناس فيما بينهم نوع تعاقد على انشاء « حكومة » . وليس القصد منها الا حماية حياة الافراد وملكيتهم. فيجب على الافراد أن يعدوا ارادة الحكومة أسمى قانون ، ولا تستطيع الحكومة الوصول الى تحقيق غرضها الا بخضوع الرعية خضوعاً تاماً ومن أجل هذا يعد « هوبز » مؤسس نظرية « العقد »

الانسان فى الحياة أو فى الحرية حق طبيعى وحقه فى ان يملك بالشفعة وفى أن ينتخب إذا بلغ سناً معينة حق قانونى • المعرب

وذهب « مونتسكيو » فى كتابيه : « عظمة الرومان وانحطاطهم » و « روح القانون » الى أن الظواهر السياسية — كسائر الظواهر الطبيعية — خاضعة لقوانين لا تتغير قال « كومت » : «ان مونتسكيو كان يرى أن الابحاث والاعمال الاجتماعية مبنية على قوانين طبيعية على حين أن غيره من كبار الرجال كانوا يرون أن فى إستطاعة المشرعين أن يعدلوا نظام الحكومة كما يريدون وان عندهم على ذلك قدرة مطلقة غير محدودة متى أعانتهم السلطة على ذلك »
ووافق « جان جاك روسو » فى كتابه « العقد الاجتماعى » ما ذهب اليه « هوبز » من أن الحكومة نتيجة تعاقد الناس فيما بينهم

الفصل التاسع

مجمل تاريخ الفلسفة
أو
تاريخ ترقى الفلسفة

١ ليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نذكر قضايا الفلسفة فى شكل تاريخ وانما غرضنا أن نقدم للقارىء المهذب معلومات عامة عن أصول الفلسفة وقضاياها — وانا لا نبعد عن الغرض اذا نحن زدنا تاريخاً اجمالياً يوضح الرقى التدريجى لقضايا الفلسفة من زمن الفلاسفة الأيونيين الى القرن العشرين بعد الميلاد ، وسيكون هذا التاريخ الاجمالى مختصراً جهد الطاقة فلا نتعرض لتفاصيل المسائل الفلسفية التى ناقشها وبحث فيها كثير من المفكرين ، وانما سنستعرض بالاجمال المميزات الخاصة للعصور المختلفة ، ونعين الروح الغالبة عليها . وانه لمن المستحيل أن نبين بالتفصيل كل النظم والآراء الفلسفية بل ولا ماهم منها ، ولا أن نسرد كل المذاهب ومؤسسيها ، فان الموضوع واسع الاطراف ومسائله فى غاية التعقيد حتى أن محاولة

تفصيلها تفوّت الغرض من هذا التاريخ الاجمالى وهو أن نقدم للقارىء صورة عامة عن نظام الفلسفة مع ما فى ذلك الموضوع من سعة تحير الألباب ، ولا يصح أن يقارن تاريخ الفلسفة بغيره من تواريخ العلوم الأخرى لسببين : أولهما أن مدار البحث فى العلوم الأخرى محدود فلا تعترض صعوبات غير عادية فى تتبع الرقى التدويجى . وكذلك بناء العلم على بعض القواعد الاساسية واضح فى كل العلوم ، وليس كذلك الشأن فى الفلسفة فقضاياها على كثرتها متنوعة وليس موضوعها واحداً فى كل العصور ، ومما يزيد الأمر صعوبة أن كل مفكر يأبى لا يبنى على ما وصل اليه من سبقه بل يبتدىء فى حل قضيته من جديد ، كأن لم تكن قبله نظم ولا وضع قبله أساس (انظر فندلبند صفحة ٩) — وثانيهما — أن ترقية الافكار وتأسيس العقائد انما يكون على يد مفكرين ذوى شخصية وهؤلاء وان كانوا مرتبطين فى أفكارهم بأفكار من تقدمهم — يزيدون عناصر خاصة من عندهم متأثرة بشخصياتهم وهذا فى

الفلسفة أهم منه فى العلوم الوضعية الأخرى ، فمن البديهى أن أخلاق الشخص وتجاربه وأعماله فى الحياة ومنشأه

وتربيتـه ، تؤثر أثراً كبيراً فيما يضع من القضايا المعنوية المجردة ، وفى فكرته العامة نحو العالم ، وتطبع ما يرى وما يفكر فيه بطابع خاص

من هذا كله ينتج ان تاريخ الفلسفة ليس الا جمعاً متسلسلا لكل الآراء الاساسية التي وضعها هؤلاء الافراد ذوو الشخصية وانظارهم الى العالم وأحكامهم على الحياة ، مع بيان ما زاده كل من عند نفسه — ويجب ألا يقتصر فى تاريخ الفلسفة على شرح نظام الفلسفة والتئام اجزائها بعضها ببعض ، بل يجب ان يشمل أيضاً شرح نموها وتدرجها فى الرقى

وواضح انه كلما ترقى الفكر وتقدم الانسان واتسعت دائرة المعارف كانت الآراء أغزر ، هذا الى انه قد تعرض قضايا على بساط البحث مرة ثم تعرض هى بنفسها مرات اخرى وفى كل مرة تبحث بطريقة جديدة تخالف الطريقة التى بحثت بها من قبل

ومن حين الى حين تزيد دائرة العقل الانسانى اتساعاً، فتنهض موضوعات جديدة ، وتقرر قضايا جديدة ، وتجاب اجوبة جديدة ، ويستكشف الخلف حلا لمسائل مفيدة لم يهتد لحلها السلف ، مع ما لكل عصر من عصور التاريخ من

طابع خاص لا يشاركه فيه غيره - وان نظرة سطحية لتكفى فى اقناع القارىء بان القضايا تزداد تركباً وتعقيداً كلما تقدمت المدنية والتهذيب بتقدم العقل البشرى

ويمكننا ان نقسم تاريخ الفلسفة الى العصور الكبرى الآتية ، ولكل عصر منها — كما قدمنا — مميزات خاصة وطابع خاص :

(١) الفلسفة اليونانية
(٢) الفلسفة الرومانية اليونانية
(٣) الفلسفة فى القرون الوسطى
(٤) الفلسفة الحديثة

٢ ان اليونانيين وان كانوا يعزون فلسفتهم فى كثير من الاحيان الى حكمة كهنة المصريين ، وانه وان كان ايضاً فى كثير من فروع العلم كالرياضة والهيئة والطب لمدنية الشرقيين وخاصة مصر اثر فى العقل اليونانى ، فانا لا يعترينا شك فى ان اصل الفلسفة هو نتيجة عقل اليونانيين ومطبوع بطابعهم — نعم ان التفكير فى هذا العالم وظواهره وفى اصل الانسان والغرض من وجوده قديم العهد قدم الفكر الانسانى نفسه ، وان الانسان اخذ يفكر فى معانى الاشياء قبل اليونان بزمن طويل ، وان جملة من مسائل العلم

التفصيلية لا يستهان بها قد جمعت فى عهد المصريين والبابليين قبل اليونان ، ولم يكن يعوز هؤلاء القدماء علم غزير بالموضوعات المفردة ولا بالنظر العام للعالم ولكن اليونان استخدموا معارف من قبلهم ، وكما قال «جومبرز» : « ان النبوغ اليونانى استطاع أن ينهض من على عاتق المصريين والبابليين ويطير حتى يصل الى أسمى مكان يمكن الوصول اليه من غير أن يصده عن ذلك صاد» — قد كان للامم الشرقية علم بما يتعلق بحاجاتهم العملية ولكن ذلك العلم كان بقدر ما يسمح به قصور العقل الشرقى فانه يعوزه النشاط العقلى الذى يحمل على الابتكار . حتى أتى اليونان فرقوا النظر العلمى وبحثوا فى العلم بحثاً منظماً مستقلا ، وطلبوا العلم للعلم لا لشىء وراءه (انظر فندلبند ص٢٣) — زار فيثاغورس وديمقريطس وأفلاطون وغيرهم مصر وآسيا الصغرى وانتفعوا بعلم أهلهما ، ولكن رقى الفلسفة رقياً علمياً كان من عمل العقل اليونانى . وقد قال افلاطون ان ميزة اليونان حب البحث أما ميزة المصريين والفينيقيين فحب الكسب ، ونوه بما لهما من مقدرة فى الصناعة وحذق فى النظم السياسية ، ولكن لم يعترف لهما بشىء من ذلك فى المذاهب الفلسفية (انظر الفصل الاول

من تاريخ نشوء الفلسفة اليونانية لمؤلفه برنديس ص ١٣)

٣ تتجلى للانسان فى فلسفة اليونان ثلاثة عصور يسهل تمييز بعضها عن بعض، وهذه العصور توضح لنا الرقى التدريجى الذى يتبعه العقل فى طور الحضارة ، ولست أعنى الحضارة الاغريقية فحسب بل كل حضارة بشرية، وهذه العصور هى: (١) النظر فى الكون (٢) النظر فى الانسان نفسه (٣) البحث المنظم ، فأول بحث شغلت به الفلسفة اليونانية الاولى كان البحث فى العالم كما يظهر أمام الانسان أعنى عالم الطبيعة

كان فلاسفة اليونان الأولون علماء فى الطبيعة يضعون فروضاً لتفهم تصرفات الطبيعة وسنة الكون فى الرقى . بدءوا يبحثون فيما يتعلق بحياتهم العملية فأداهم ذلك الى الرغبة فى معرفة الطبيعة نفسها قال « فندلبند » : « ان علم اليونان خصص حياته الاولى وما لها من قوة شباب لدرس قضايا الطبيعة وأغفل البحث فى أعمال الفكر، واكتفى بالبحث فى العالم الخارجى » فكان أهم ما إهتمت به تلك الفلسفة مسائل الطبيعة والفلك والجغرافيا وعلى الخصوص الظواهر الاساسية العظمى ثم تدرجوا بعد ذلك فى البحث فلم يقصروا نظرهم على الأعمال الطبيعية المادية بل حاولوا معرفة الأساس الذى يطرأ عليه التغير —

والبحث فى التغير ومعرفة أساسه هو المحور الذى تدور حوله النظريات الفلسفة ويشمل أعظم القضايا الاساسية التى يبحث عنها علم ما بعد الطبيعة وهذا التغير أعنى أن الاشياء يتحول بعضها الى بعض هو الذى بعث على التأمل والنظر وحمل فلاسفة اليونان على الجد فى تقرير قواعد لهذا العالم القلب الحول الذى قد تتغير فيه الاشياء فجأة الى اضدادها (فند لبند ص ٣١)

بحثت الفلسفة عن الاساس الذى تطرأ عليه التغيرات وتعتريه التقلبات والذى منه تخلق اشخاص الاشياء واليه تعود (ص — ٣٢) وصيغ هذا المعنى بوضوح فى الاسئلة الآتية: « ما اساس الاشياء الذى يبقى مع كل التغيرات العارضة وكيف يتحول ذلك الاساس الى تلك الاشياء وكيف تتحول الاشياء اليه ؟ ولحل هذه المسألة وتقرير طبيعة اساس الدنيا أو هيولى العالم أو مادته قامت نظريات عديدة وضعها فلاسفة اليونان الاولون مثل طاليس وانكسمندر وانكسمينيس وهرقليطس والايليون [1] والفيثاغوريون وظهرت انظار عديدة تتعلق بذلك الوجود وما يصير اليه وبمادة العالم ونحو ذلك

---

(١) الايليون نسبة الى ايليا وهى مستعمرة كانت اغريقيه فى جنوب ايطاليا

٤ - بعد هذا تحول الفكر اليونانى والابحاث الفلسفية عند اليونان تدريجاً الى الانسان نفسه فكانت اعماله موضع البحث واغفلوا البحث فى العلم الطبيعى الذى كان قبل موضوع الفلسفة واتجهت ابحاثهم نحو قوى الانسان الباطنة فبحثوا فى القوة المفكرة والقوة المريدة وعمل هاتين القوتين لعنى التفكير والارادة وكيف تنشأ الفكرة والارادة — وفى ذلك الحين ظهرت فى عالم البحث مسألة جديدة وهى هل حقائق الأشياء ثابتة وهل هناك شىء حق أو صواب أو خير قائم بنفسه لا علاقة له بآرائنا الشخصية. وفى هذا العصر ايضاً — الذى يسمى العصر الانسانى أو الانثروبولوجى نظراً لاتجاه بحثه نحو الانسان وتمييزاً له عن العصر الذى قبله — عصر النظر الى العالم — ظهرت مبادىء القضايا الاخلاقية والمنطقية والنفسية « السيكولوجية » ومن رجال هذا العصر سقراط والسوفسطائيون الذين من أشهرهم بروتاغوراس وهبياس وبروديكوس . وقد وافق سقراط السوفسطائيين فى توجيه بحثه نحو الأنسان وخالفهم بقوله ان حقائق الأشياء ثابتة اذ كانوا ينكرون ذلك ، وحاول — بالبحث العلمى — تقرير مبادئ ثابتة يؤسس عليها سلوك الناس ومعاملتهم الاخلاقية، وقد أسست على مبادئ سقراط مذاهب ظهرت

بعدُ أشهرها مذهب الميغاريين[١] أسسه اقليدس ومذهب الكلبيين[٢] أسسه أنتستنيس ومذهب القورينائيين[٣] أو مذهب السعادة أسسه أرسطبس

---

(١) الميغاريون نسبة الى ميغارى Megaris مقاطعة كثيرة الجبال فى بلاد اليونان فتح فيها أقليدس مدرسة لتعليم الفلسفة واشتهرت مدرسته بكثرة الجدال والسفسطة التى كانت المدرسة تخترعها لتمرين تلاميذها وكان اقليدس نفسه سوفسطائياً ماهراً وسميت شيعته بالميغاريين واقليدس الميغارى مؤسس هذا المذهب ولد سنة ٤٤٠ ق م وهو غير اقليدس الرياضى المشهور (المعرب)

(٢) الكلبيون Cenic كانوا يرون أن الآلهة منزهة عن الاحتياج وخير الناس من تخلق بأخلاق الله فقلل من حاجاته جهد الطاقة وقنع بالقليل وتحمل الآلام واستهان بها واحتقر الغنى وزهد فى اللذائذ وان الفقر والعمل الشاق المؤلم وسوء السمعة أمور نافعة تسهل للانسان تحصيل الفضيلة وتعينه على نيل الحرية ومن أجل ذلك زهدوا فى اللذائذ ولم يحترموا عرف الناس وما تواضعوا عليه ولا قوانين البلاد انما يحترمون ما تمليه عليهم الحكمة والعقل ولما كانوا لا يحترمون عوائد الناس ويرتكبون ما يتحرج الناس من فعله من غير خشية ولا احتشام وكانوا فى ذلك كالكلاب أطلق عليهم أهل زمانهم اسم الكلبيين (المعرب)

(٣) القورينائيون Syrenaic نسبة الى قورينا (مدينة شمالى افريقية من مدن برقة) كان اسمها عند اليونان سيرينى Syrene فعربها العرب قورينا وليد بها مؤسس المذهب ارسطبس فنسب المذهب

وقد كان هذان النوعان من البحث الفلسفى أعنى البحث فى العالم والبحث فى الانسان مقدمة لأعظم رقى للفكر اليونانى، وقد ظهر ذلك الرقى فى عصر البحث المنظم وبلغ أوجه فى النظم الفلسفية التى وضعها ديمقريطس وأفلاطون وارسطو — ففى الدورين الاولين — دورى البحث فى الكون والانسان — كان مدار بحث الفلاسفة قاصراً على عدد محدود من المسائل، أما فى دور البحث المنظم فقد كان مدار البحث أوسع وشمل القضايا الطبيعية والنفسية، وقد استعمل عظماء هذا الدور مثل ديمقريطس وافلاطون وأرسطو ولاسيما الأخير — معارف من قبلهم. وبحثوا الاشياء من جميع جهاتها بحثاً علمياً ووجهوا نظرهم

اليها. وقد سماهم البستانى فى دائرة المعارف القيروانيون ظناً منه أن القيروان اسم لسيرين وهذا خطأ فان القيروان مدينة فى تونس بعيدة جداً عن سيرين وورد الاسم صحيحاً فى أخبار الحكماء للقفطى فقد قال « وأما الفرقة المسماة من اسم البلد الذى كان فيه الفيلسوف فشيعة ارسطبس من أهل قورينا » وقال فى موضع آخر « وكان أصحابه يعرفون بالقوريناثيين نسبة الى البلد » ومذهبهم على الضد من الكلبيين فانهم يرون أن اللذة والخلو من الالم هما الغاية الوحيدة الصحيحة للحياة وليس العاقل من يميت شهوته بل من يحييها وينيل نفسه ما تتمنى من الملذات ما لم تستتبع الما (المعرب)

الى البحث فى كل المسائل العلمية فأخرجوا للناس علماً منظما شاملا كاملا قال فندلبند : « ان تنظيم العلم وتوسيع نطاقه حتى يشمل كل النظريات الفلسفية منزلة امكن لديمقريطس وأفلاطون وأرسطو أن ينجحوا فى الوصول اليها . وكان الاخير منهم أول من قسم العلوم وجعل لكل علم دائرة بحث خاصة ومن أجل هذا يعد أرسطو خاتمة عصر نشوء الفلسفة اليونانية فاتحة عصر العلوم المتميزة[1] وأرسطو هو الذى لخص الافكار اليونانية وصفاها وأخرج للناس نظاما للفلسفة كاملا وبحث فى كل فروعها أعنى ما وراء المادة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة والجمال

٦ العصر الثانى العظيم من عصور الفلسفة عصر الفلسفة الرومانية اليونانية [2] وبهذا العصر انتهى دور البحث المنظم . وابتدأ الميل الى وضع الشروح المطولة ، وأهم مميزات

---

(١) نعنى بالعلوم المتميزة العلوم التى خصص كل علم منها لبحث خاص ولم يكن هــذا هو الشأن عند اليونان فى العصور الاولى بل كانت موضوعات العلوم ممزوجا بعضها ببعض (المعرب)

(٢) سمى العصر بذلك لأن فيه امتزج اليونان بالرومان وصار اليونان جزءا من المملكة الرومانية وكان استيلاء الرومانيين على مقدونية وجميع بلاد اليونان سنة ١٤٦ ق . م وانتقل بذلك كثير من الفلسفة اليونانية الى الرومان (المعرب)

هذا العصر انه عصر تحصيل للعلوم وسعة فى الاطلاع اكثر منه عصر بحث ونظر ، وانه عصر اقبال على العلوم المتميزة واذا كانت الفلسفة فيه قد اتخذت شكلا جديداً استمرت فيه بضعة قرون فذلك ناشىء من حالة الرقى العامة ومن التغير الذى احدثته الحياة السياسية والاجتماعية اليونانية

كان اليونان قد نضجت عندهم الآداب والفنون لما أن وصل الاسكندر الاكبر الشرق بالغرب وازاح الفواصل بينهما وأقام جسراً عبرت عليه المدنية والعلوم والمعارف من بلاد اليونان الى آسيا وانتشرت فيها. ولكى يخلد اسمه أنشأ مدينة (الاسكندرية) اختار لها بعد نظره الثائق موضعاً على احد شواطىء النيل [1] أصبح لحسن موقعه الجغرافى محطة بين آسيا وأوربا ومركزاً للتجارة بين الامم كما كان مركزاً كذلك للعلوم والمعارف .

انتشرت المدنية والفلسفة اليونانية فى كل العالم وصارت أثينا وبعض بلدان اخرى فى مملكة الاسكندر — وفى

---

(١) كانت الاسكندرية تقع الى الغرب من فرع النيل القديم المسمى (فرع كانوب) وتبعد عنه بنحو اثنى عشر ميلا وكان يصل المدينة بذلك الفرع قناة . (المعرب)

الامبراطورية الرومانية من بعد — مركزاً للمدنية والعلوم والمعارف

بعد سقوط بلاد اليونانية فى أيدى الرومان اعترى البلاد تغير تام لا فى السياسة وحدها بل فى السياسة والعلوم معاً — فان الفتح الرومانى الذى أزال كل الفروق السياسية ومحا الخلافات القومية ، ووحد الامم المختلفة باخضاعها للحكم الرومانى ، وأتم بذلك العمل الذى بدأ به الفاتح المقدونى لم يخل من تأثير فى الافكار والعقول ، فالنظام السياسى للحياة اليونانية أخذ ينهار ، وأدرك الوهن تلك المبادئ الاخلاقية التى وضعت لهداية الناس والتى كان يمدها بالحياة الشعور بالواجبات الوطنية وحب الجمهورية ، وخلى الانسان ونفسه يبحث عن مبادئ لنفسه يتبعها فى سلوكه ، واهتزت الديانة اليونانية والاخلاق القومية من أساسهما ، وتقوض أساس الاعتقاد بالآلهة الاولى وبالدين ، فقامت الفلسفة تحاول أن تحوز المكان الذى خلا بسقوط دين الامة ، وابتدأ الانسان يبحث عما يهديه فى حياته فاعتقد — أو تخيل — ان الفلسفة هى الهادى الأمين فكانت مهمة الفلسفة كما قال «فندلبند» [1] «ان تسد مسد الاعتقاد الدينى» وأصبحت

(١) فندلبند الذى يرد ذكره كثيراً فى هذا الفصل أستاذ ألمانى

القضية الهامة التي يدور حولها البحث الفلسفى سلوك الانسان، وبعبارة أخرى معاملة الانسان للانسان، وبذلك تشكلت الفلسفة بشكل عملى ، اذ أصبح مقصدها وضع فن للحياة ، وغلب عليها البحث الأخلاقى وصارت بعد منافسة للدين ومعارضة له . ويتجلى لك هذا فى أميال الرواقيين والأبيقوريين . وشجعت الدولة الرومانية هذه الافكار ، ذلك لان الرومان كانوا أمة عملية لا تأبه للقضايا النظرية المحضة ولا تعيرها التفاتا وانما كانت تتطلب العلوم العملية وابحاث الفلسفة التى تهدى الناس فى الحياة — وبهذا يظهر ان الميل الى الحكمة العملية فى هذا الزمن جعل البحث الفلسفى يتجه جهة خاصة

أتى بعد ذلك حين تملك الناس فيه احساس بالسخط ملأ قلوبهم وكان ذلك أيام مجد الدولة الرومانية ، فان تلك الدولة مع اتساعها والتحام اجزائها حتى تكونت منها مملكة واحدة قوية لم تستطع أن تعوض على الناس ما افقدتهم من استقلال ، ولم يكن فى قدرتها أرضاؤهم باطنا ولا اسعادهم

يدرس الفلسفة فى جامعة ستراسبورج ألف كتابا ضخما فى تاريخ الفلسفة يقع فى ٧٢٦ صفحة من القطع الكبير وترجم الى اللغة الانجليزية ومنه يقتبس مؤلف هذا الكتاب (المعرب)

ظاهراً ، وكانت مدنيـة العالم الرومانى اليونانى اذ ذاك متنافرة غير ملتئمة ، فكنت ترى تناقضاً تاماً فى الحيـاة الاجتماعية، فترف ورخاء بجانب سغب وشقاء. وكنت ترى ملايين من الناس قد حرموا حتى ما يحفظ حياتهم بين جنوبهم ، فاستولى على الناس احساس بظلم جائر وشعور بوجوب ثورة على النظام الاجتماعى الذى لا يسوى بين الناس ، وظهر عليهم اذ ذاك أيضاً أمل فى حياة مستقبلة (آخرة) يجزى فيها الانسان جزاء عادلا ويعوض عما لقى من ظلم ، فوجهت تلك الملايين التى حرمت كل شىء فى العالم وجهتها نحو عالم أعلى وتحولت الافكار — بشوق — الى عالم وراء عالمنـا ، الى العالم العلوى لا العالم السفلى (الى الحياة الاخرى لا الحياة الدنيا) وعجزت الفلسفة عن أن ترضى الناس ، واعترف الانسان بعجزه التام عن معرفة نفسه اذا هو اعتمد على قواه فحسب ، ويئس من تحصيله هذه المعرفة اذا لم تعنه قوة علوية ، واعتقد أن السعادة الابدية لا توجد فى هذا العالم المحسوس بل فى عالم آخر وراء حياتنا الاولى ، ولم يعد فى وسع الفلسفة اقناع الرجل المهذب بما تقدمه من نموذج اخلاقى للحياة ، كلا ولا بما تتعهد به من سعادة ، فحولت وجهها نحو الدين تستمده المعونة .

غير أن الناس في ذلك العهد أظلمت أفكارهم واشتد شعورهم بنقصان ما عندهم من العلم وحاجتهم اليه ، فطمع الدين أن يكون مقنعاً لهم في شعورهم وعقولهم معاً ، وطمح أن يحول الحياة كلها الى عقيدة دينية ، لذلك نرى أنه بينما كانت الفلسفة تحاول حل مسائلها وقضاياها بمعونة الدين وهي مع ذلك لا تهتدي الى حل — كان الدين يبحث عن الفلسفة ونظمها ليجد له أساساً علمياً يبنى عليه عقائده ويجعلها أكثر قبولا لقوم راقين ، قال «فندلبند» : «ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذب الآراء الدينية وترتبها ولتقدم الى الشعور الديني اللجوج فكرة في العالم تقنعه فأوجدت نظماً دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الاديان المتضادة اتفاقاً يختلف قلة وكثرة » (ص ١٥٨)

لهذا كان امتزاج الدين بالفلسفة — الذى هو من خصائص التطور العقلى قبيل النصرانية وبعدها — ملموحاً فى الرأى العام وفى المدنية أيام الحكم الرومانى ، وكان من جراء هذا الامتزاج انحلال أخلاقى يشعر بالحاجة الى الاصلاح

كان الانقلاب فى النظم السياسية والاجتماعية، واختلاط

الامم المختلفة الأصل ، والتغيرات التى شملت العوائد والدين ، سبباً فى ظهور روح جديدة تغلبت على الفلسفة ووجهتها وجهة جديدة . ذلك أن أفكار اليونان ومدنيتهم لما عدت قوميتهم وتخطت حدود بلادهم أصبحت تميل الى عد كل العالم — لا اليونان وحدها — وطناً لها، وصارت الفلسفة اليونانية — من جهة — تحاول أن ترضى الانسان وتقنعه ، لا من حيث أنه عضو فى مجتمع أو أحد أفراد حكومة جمهورية ؛ بل من حيث أنه فرد ما يونانياً كان أو شرقياً أو رومانياً، وثنياً أو يهودياً — ومن جهة أخرى — تحاول أن تملأ المكان الذى اخلاه دين الأمة بعد ان فقد برقى الناس ما كان له من قوة

كانت نتيجة تلك الحالة العامة أن صارت الحكمة الرومانية اليونانية تنظر الى الانسان فى سلوكه ومعاملاته كانه فرد مستقل عن غيره [1] وكانت الفلسفة التى تبحث

---

(١) لتوضيح ذلك نقول ان الغالب على البحث الاخلاق فى القرون النصرانية الاولى — ايام اضطهادها وتعذيب اتباعها — كان النظر الى الانسان كانه مستقل عن غيره وكانت الاخلاق تتطلب من الانسان أن يعمل لتخليص نفسه وأن يفر من اخيه وأمه وابيه وكل قريب له ليسير وراء غايته وغايته هى التخلق بأخلاق الله وحببه الى الناس

فى هذا السلوك مطبوعة بطابع أخلاقى أو دينى ولم يكن للمسائل السياسية العامة شأن يذكر ، انما كان الشأن للقضايا التى تتعلق بالانسان نفسه ، ويتجلى هذا الميل فى مذهب الرواقيين والأبيقوريين والشكاك ومحدثى الافلاطونيين وفى الفلسفة اليونانية اليهودية وفى الغنوسطيه[١] .

وكانت الاسكندرية هى المركز الجغرافى لمزج الدين بالفلسفة، فبعد أن كانت مدينة المتحف والمكتبة، والمدينة المعروف عن أهلها النقد وسعة الاطلاع ، أصبحت مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينيـة ، فسهل الاتصال والامتزاج ، والتقى على ضفاف النيل رجال مختلفة آراؤهم ،

العزلة وان يعيشوا فى العالم كانهم ليسوا من اهله فلما اصبحت النصرانية ذات سلطان بعد القرون الاولى من حياتها غلب عليها النظر الى الانسان كانه عضو فى مجتمع وطلبت منه ان يحسن علاقته مع الله ومع الناس (المعرب)

(١) يعنى بالرواقيين والابيقوريين هنا رواق الرومانيين وأبيقوريهم فقد انتقل هذان المذهبان اليهم وطبعوهما بطابع خاص والافلاطونية الحديثة مذهب سنشرحه عند الكلام على فلسفة العرب والغنوسطية (gnosticism) ويصح ان يسموا بالادرية (ضد اللاادرية) ضرب من الفلسفة ظهر فى القرون الاولى للميلاد كان مذهبهم مزج الفلسفة الشرقية والفلسفة اليونانية بالنصرانية واخراج مزيج من ذلك وهم فى هذا كمحدثى الافلاطونيين كما ستعلم (المعرب)

متباينة مذاهبهم تبادلوا فيها الآراء كما كانت تتبادل فيها السلع فاتسعت دائرة الفكر وقورن بين الآراء المختلفة وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديدة أسست على مبدأين متناقضين ممتزجين : أحدهما الشك والنقد والثانى سرعة التصديق بالأشياء على علاتها . تقابلت فى الاسكندرية آراء الشرقيين والغربيين (اليونان) فامتزجت روح اليونان بروح المشارقة فانتجتا عقائد ونظماً دينية متأثرة بتأمل الاولين والهام الآخرين . بما لليونان من علم وما المشارقة من أساطير . جاءت الروح اليونانية بما لها من ذكاء ودقة وقدرة على الشرح المبين فأصابتها شرارة من الشرق أشعلتها وأحيتها — كذلك أخرجت الروح الشرقية — التى من خصائصها الطموح الى ما وراء عالم الشهادة — نظاما ملتئما ونظريات مرتبة لم تكن لتخرجها لولا مساعدة العلم اليونانى لها، فأنه رتب مأثور الشرقيين وحل من عقدة لسانهم فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التى بلغت الذروة فى مذاهب الغنوسطية والافلاطونية الحديثة ويهودية فيلون ومذهب الاشراك الذى وضعه يولبان الصابى — ان الشرق بما له من ميل الى الغيب وخوارق العادات وما فى طبيعته من تصوف وتدين ، واليونانى

بما له من فحص دقيق وبحث عميق ، وان شئت فقل أن ما للأول من شعور وما للثانى من تحليل منطقى امتزجا ونتج منهما فكر خاص انتشر فى الاسكندرية فى القرون الأولى للميلاد ، وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين : صبغة الكماليين والصوفيين وصبغة أهل البحث العلمى ، ولذا امتاز هذا العصر بميل الفلسفة الى الدين وميل الدين الى الفلسفة ، قال « بلدوين » فى كتابه « معجم الفلسفة » عند كلامه على مادتى « فن » و« مدرسة الاسكندرية » :

« ان الشرق والغرب اختلطا فى الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام فى المدنيـة والعلوم والدين بآراء الشرق الاقصى فى ذلك فنشأت قضية جديدة عمل على ايجادها بحث الغرب والهـام الشرق واتصل الدين بالفلسفة اتصالا وثيقاً كان من نتائجه ظهور عقائد لا هى من الفلسفة المحضـة ولا من الدين الخالص بل أخذت بطرف من كل . وجاء ذلك من عاملين أحدهما ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثراً بالعلم اليونانى وثانيهما أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التى جاء بها المشارقة ومن

أي الجهتين نظرنا رأينا أن النتيجة كانت فلسفة دينية لا هى فلسفة محضة ولا هى دين خالص »

٧ العصر الثالث من عصور الفلسفة عصر القرون الوسطى وبعبارة ادق الفلسفة النصرانية

سقطت الدولة الرومانية فى ايدى امم الشمال المتبربرة فقوضت الحضارة الرومانية اليونانية القديمة وطغى سيل القوط — والبرجنديين والوندال والسويفيين والالنيين والكلتيين والسكسونيين ولاسيما قبائل المغول والهون — على الدولة الرومانية العتيقة الواسعة وكانت قد بلغت من ضعفها الناتج من انحلالها الاخلاقى وانحطاطها الاجتماعى حداً اصبحت لا تستطيع معه مقاومة هـذه الامم القوية المتبدية

وجاءت هذه الامم المتبربرة بخصائص قومية وافكار ونظم كانت شريفة راقية — وان صدرت عن قوم بدو — استطاعت فيما بعد ان تنافس المدنية الراقية وتسير معها جنباً الى جنب . غير انهم مابرحوا جفاة غلاظاً خاماً ومضت قرون طويلة قبل أن يأخذوا عن اليونان والرومان مدنيتهم ويمزجوها بأفكارهم ويكونوا منها المدنية الحديثة . لم يكن لهم لاول عهدهم علم بفنون اليونان ونظمها الفلسفية المحكمة

فكان عصرهم الاول عصر جهل وخشونة اعقب عصر المدنية والحضارة والآداب ونضارة الفنون والعلوم التى كانت من مميزات العقول ايام الدولة اليونانية الرومانية وقد كادت آثار العقل الاغريقى تضيع لولا افراد قليلون من العلماء المسيحيين حفظوا بقايا المدنيـة القديمة — مع محاربة الكنيسة لهم — حتى وصل هؤلاء المتبربرون الى درجة من الرقى العقلى امكنهم معها ان ينتفعوا بتلك البقايا شاكرين لمن حفظها لهم

كانت الكنيسة على العموم تضطهد آداب اليونان والرومان وعلومها وتحارب من اشتغل بهما، وتعارض نشر الحياة العقلية والمدنية القديمتين ، وتحدد دائرة يجول فيها الفكر ، ذلك لأنها اعتقدت ان الحقيقة قد وصلت اليها من الوحى المعصوم فلا معنى بعد أن تسمح للناس بالبحث عنها لذلك كانت الكنيسة عدوة الفلسفة والعلم فخمدت الحياة العقلية ولم تسترد نشاطها الا بعناء لما أن انبعثت أشعة « النهضة » ممتزجة بأشعة من الشرق — فأضاءت سماء القرون الوسطى المظلمة

واذا كان قد بقى شىء من الاحترام للعلم نشأ عنه المحافظة على شىء من الفلسفة القديمة فانما كان ذلك قاصراً

على الجزء من المدنية القديمة الذى يندمج فى تعاليم النصرانية ، أما ما عدا هذا وخصوصاً ما يعارض النصرانية فقد كان ينبذ نبذاً ، وبذلك ظلت الفلسفة الغربية خادمة للدين جملة قرون وكان غرضها الرئيسى تأييد العقائد الدينية وتحديدها وتنظيمها ، واظهار أن تلك العقائد التى نزلت من السماء تتفق أيضاً مع العقل

ويمكننا تقسيم سبيل النشوء الذى سلكته الفلسفة المسيحية الى عصرين كبيرين : أولهما ابتدأ من العصور المسيحية الاولى وفيه كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين ، فرأوا من الضروى أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين وقد ختم هذا العصر عملياً فى الحقيقة بالاب أوغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) غير أن بعض الكتاب الكنائسيين — الذين هم فى المرتبة الثانية بعد الاولين — ساروا على هذا النمط الى القرن التاسع ويلقب هذا العصر « بعصر الآباء » والعصر الثانى يمتد من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر ويلقب « بالعصر المدرسى » لان التعليم كان يقوم به جمعية الرهبان فى مدارس الكنائس وقد أنشأ شارلمان كثيراً من هذه المدارس فى جميع أنحاء فرنسا وكان مدرسوها من رجال الكنيسة وكانوا يرمون

الى الباس مآرب الكنيسة لباساً فلسفياً ، ويطلق هذا الاسم على ذلك العصر من القرون الوسطى – الذى كانت الفلسفة فيه تدرس تحت سلطان الدين وكان القصد من دراستها تطبيق التعاليم المسيحية على العقل، وقد استمر هذا العصر من القرن التاسع الى ظهور النهضة فى القرن الخامس عشر

قال « هجل » فى كتابه المسمى « محاضرات فى تاريخ الفلسفة » « ان الفلسفة المدرسية (فى العصر المدرسى) لم تكن مذهباً محدوداً كمذهب الافلاطونيين أو الشكاك بل كانت مجرد اسم مبهم يطلق على كل مباحث المسيحيين الفلسفية فى اكثر من خمسمائة عام » « فليست الفلسفة فى العصر المدرسى الا لاهوتاً ولا اللاهوت الا فلسفة والفيلسوف المدرسى هو من يبحث فى اللاهوت بحثاً علمياً منظماً ». ففلسفة العصر المدرسى هى فلسفة أوروبا التى انتشرت بين الكنائس فى شكل لاهوتى . وكانت الفلسفة والدين فيه شيئاً واحداً وانفصال أحدهما عن الآخر انما كان عند انتقال الناس الى العصور الحديثة لما رأوا أن بعض ما قد يراه العقل حقاً قد يراه الدين باطلا وكانوا من قبل يرون أن ليس هناك الا حق واحد وهو ما أقره الدين . قال « هجل » فى ذلك الكتاب « ان اللاهوت فى العصر المدرسى لم

يكن قاصراً على مايختص بالله من العقائد — كما هو الشأن عندنا — بل كان يشمل أدق الافكار فى فلسفة ارسطو والافلاطونية الحديثة » كانت الفلسفة فى العصر المدرسى توفق بين العقل والدين، بين الطبيعة وقدرة الله، ومن قبل كانت هذه الاشياء متعادية . ومؤسس هذه الفلسفة « سكوتس اريجينا » واكبر ممثليها القديس أنسلمس وأبيلرد والقديس توماس ودنس سكوتس . وتنقسم الفلسفة فى العصر المدرسى الى قسمين : افلاطونية وارسططاليسية أو مشائية فكانت أولا متأثرة بآراء افلاطون ثم أخذت تخضع لنفوذ ارسطو من القرن الثالث عشر — وقد نشأت آراء اباء الكنيسة (العصر الاول) من آراء اليونان والرومان اما فلسفة العصر المدرسى فنبتت فى ارض الجرمان والعالم اللاتينى الحديث وكانت ثمرة حضارة جديدة

٨ العصر الرابع من عصور الفلسفة عصر الفلسفة الحديثة وهو يبتدىء « بالنهضة » ويستمر الى يومنا هذا

يرجع قيام الفلسفة الحديثة الى حركتين تاريخيتين عظيمتين احداهما النهضة أو احياء العلوم وآثار اليونان والرومان فى الفنون والعلوم، والثانية الاصلاح الدينى .

فنى نحو منتصف القرن الخامس عشر ابتدأت المدنية اليونانية تؤثر فى عقول الغربيين ، وانبعثت من ايطاليا لغة اليونانيين القدماء وشعرهم وفلسفتهم ، وسارت سير الفاتح الفائز الى أن شمل فتحها اوروبا باجمعها . نعم ان الاسباب التى أنتجت هذه الحركات العظيمة كانت تعمل من قبل هذا التاريخ ولكن لم يتم تكوين النهضة الا فى النصف الاخير من القرن الخامس عشر عند ما سقطت المملكة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية فى يد الاتراك فهجر علماء اليونان بلادهم والتجئوا الى ايطاليا . ابتدأت تلك الاسباب تعمل على ايجاد النهضة من أيام الحروب الصليبية — ان لم يكن قبل ذلك — ولم تكن النهضة طفرة ولا كانت روح العلم القديم ميتة أو فى سبات عميق فانتبهت دفعة واحدة . فجداول المدنية والعلم الثلاثة وهى اليونانية والسامية والرومانية كانت قد تقابلت فى الاسكندرية وامتزجت وتكون منها مجرى واحد جديد ثم عاد ذلك المجرى فتفرع الى ثلاثة جداول سارت فى سبل متفرقة لتمنح العالم خصباً وهى النصرانية اليونانية والنصرانية الرومانية والعربية ، ويزاد عليها مايعد كرافد لها وهو اليهودية . واستمرت هذه الجداول تفيض بهدو مدة قرون من غير أن تتقابل، وكانت

مراكزها العقليـة على الترتيب — القسطنطينية وباريس وبغداد ومدارس الاندلس ، وقد تقابلت هذه الجداول فى بلاط فردريك الثانى [1] وظهر من اجتماعها مدنية وثنية تكونت من امتزاج هذه المدنيـات الثلاث بعضها ببعض وابتدأت روح الثورة والاستقلال تظهر من ذلك الحين ولكنها كانت قبل اوانها . فالكنيسة كان لها السلطان الاكبر وكانت العقول لاتزال تخضع للدين خضوعاً تاماً فكانت النتيجة ان تحولت هذه الحركة الى التيار الدينى ثانية حتى اتت سـنة ١٤٥٣ فكملت النهضة ووصلت بعد السير البطىء المستمر الى الذروة — وقدر للجداول الثلاثة التى تفرعت فى ارض مصر الخصبة أن تتقابل ثانية فى رياض الأسرة الميديسية [2] فى فلورنسا . ولكن مضي عليها عدة قرون من يوم أن فارقت مدينة النيل (الاسكندرية)

---

(١) فردريك الثانى ملك جرمانيا ولد سنة ١١٩٤ ومات سـنة ١٢٥٠ حارب فى الحروب الصليبية وتوج امبراطورا على ايطاليا فى رومه سنة ١٢٢٠ وأنشأ جامعة نابلى وشجع العلوم والاداب وتوج ملـكا على بيت المقدس فى الحروب الصليبية سنة ١٢٢٩

(٢) الاسرة الميديسية أسرة من فلورنسا (بايطاليا) تقلدت زمام الاحكام فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر لما حازته من الغنى بواسطة التجارة (المعرب).

وهى تسير فى ثلاث شعب متوازية الى أن صبت مياهها الزاخرة كلها فى مدينة نهر الارنو (فلورنسا) مركز النهضة فهنالك تقابلت الروح الغربية والبيزنطية والمدنيات اللاتينية النصرانية، وسال بها الوادى ففاض على اوربا باجمعها

قال ج . ب . أدمس فى كتابه « المدنية فى القرون الوسطى » : « ان الاحوال السيئة التى سادت فى اوربا فى القرون الوسطى الاولى من جراء غارات التيوتونيين فاخمدت نور العلم الذى كان عند الاقدمين صارت الى الزوال... وجرت حوادث عظيمة وظهرت افكار جديدة فى التجارة والاستكشاف وفى السياسة انتشرت بين الناس بالعدوى فكانت تزيد فى نمو العقل البشرى يوماً بعد يوم » وابتدأ الانسان يتحقق من ان وراءه تاريخاً هاماً يستطيع أن يتعلم منه مسائل كثيرة، وذلك ان العقل لما ادركه الاعياء من التقاليد الجافة التى كانت فى القرون الوسطى وأحس بثقل أغلال الكنيسة التى كانت تمنعه من ان يفكر لنفسه ولى وجهه شطر الافكار والعلوم اليونانية يدرسها وفعل مافعله المشارقة فى الاسكندرية لما ان شغفوا بالآداب اليونانية، وابتهج المتعلم فى القرون الوسطى برفع النقاب عن عالم الفكر اليونانى لما رأى فيه من غنى وجمال، فجاء

عصر جديد وثنى اكثر منه نصرانياً ، يناهض المدنية النصرانية فى القرون الوسطى،حييت فيه المذاهب الفلسفية القديمة وعادت الفلسفة الافلاطونية فبزغت فى سماء ايطاليا بعد ان مر على غروبها فى الاسكندرية عدة قرون وهى محتجبة فى خبايا الاديرة وبعثت اكاديمية اثينا [1] فى رياض فلورنسا (انظر دريبر فى كتابه الرقى العقلى) واخذ الفلاسفة ينظرون بشوق الى الازمان الوثنية الجليلة

٩ سار الاصلاح الدينى جنباً لجنب مع الحمية لمدنية اليونان والرومان فى الفنون والعلوم وجاء المجرى الجديد الذى سال من بيزنطية (القسطنطينية) فمر بايطاليا ثم غمر اوروبا كلها فحول مجرى الافكار الغربية ، ولم تقتصر نهضة الانسان على احيائه علوم الاولين واستكشاف ما كانوا يعرفونه بل تهيجت فيه عواطف وقوى طال زمن اهمالها واستيقظ من غفلتـه فشعر شعوراً جديداً بالحياة وبالعالم الذى فيه يعيش وبما يعرض له من المسائل التى تتطلب حلا ،وأحس بقدرة عقله على اكتناه اسرار الطبيعة

---

(١) الاكاديمية Academy بستان قرب اثينا كان فى الاصل لبطل شهير يسمى « أكاديموس » وكان يجتمع فيـه افلاطون ومن أتى بعده يتدارسون الفلسفة فيه (المعرب)

وحل مايعرض عليه من هذه المسائل (أدمس ص ٣٦٥)

قال « برك هارت » فى كتابه الممتع « مدنية ايطاليا ايام النهضة ص ١٣١ » : « فى القرون الوسطى كان النظر الى باطن الانسان وما حوله من الاشياء الخارجية بين النوم واليقظة ، قد سدل عليه ستار نسجه الدين والوهم والتعصب الاعمى منع الانسان ان يرى العالم على ماهو عليه . وما كان يحس الانسان بنفسه الا كفرد من جيل أو شعب أو حزب أو أسرة أو « طائفة » . وما كان يحس لنفسه بشىء من الشخصية ، ورفع ذلك الستار أيام النهضة فرأى من الممكن أن يفكر فيما حوله من الاشياء سواء كان حكومة أو أى شىء فى العالم ، كما رأى من الممكن ان يفكر فى نفسه ، واعتقد انه فرد ذو روح حساسة — وامتاز ذلك العصر بشعور الانسان فيه بشخصيته المطلقة ، وبمعارضته للسلطة وذويها ، وذهابه شوطاً بعيداً فى اعتبار العالم كله وطناً له . وهذه دلائل اعظم رقى يصل اليه الناس فى تقدمهم العقلى ، وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الانسانية والحياة الدنيوية مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القرون الوسطى ، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا انفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء « الانسانيين » كما تسمى

عقائدهم ومثلهم العليا « الانسانية » وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الانسانيون « نمو الفردية » أعني الرأى القائل بان الانسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه — وهو رأى كان قد اهمل فى عصر عبودية العقل — وهذا الرأى هو ما كان يجده وراءه علماء ايطاليا منذ زمان

واول مابدت بشائر تقرير ما للانسان من شخصية كان زمن النهضة وتم ذلك على يد « العلماء المتبحرين » الذين جاءوا بعد فرددوا تعاليم النهضة وايدوها ، امثال ديدرو ورسو وفنكلمان وهامان وهردر

قال فندلبند : « أن الفلسفة فى أيام النهضة لم تعد من عمل الجماعات (كما كانت فى القرون الوسطى) بل اصبحت من عمل افراد احرار مستقلين » وقد كان من أهم أغراض للنهضة تقرير الحرية الفردية وبعبارة اخرى انماء الشخصية وجاء الاصلاح الديني فساعدها على ذلك

فهم الناس على عهد الاصلاح الدينى أن لهم حق الحكم الشخصى على الاشياء ، وتحررت افكارهم من قيود قيدها بها رجال الدين ، وقد كان هذا كامناً فى نفوس الناس من قبل ، ولأن يعد هذا سبباً فى حركة الإصلاح اقرب من ان يعد نتيجة . (انظر فندت ص ١٧٦) فمبادئ الاصلاح الدينى

كانت الثورة على سلطة الكنيسة ، واعطاء الانسان حق الحكم الشخصى، وكان من آثار هذا الاصلاح تحرير العقول من العبودية التى وضع نيرها رجال اللاهوت ، وفصل الفسلفة عن الدين وجعلها علماً دنيوياً مستقلا [1] — وهاتان الحركتان أعنى النهضة العلمية والاصلاح الدينى بتعاونهما أنتجا عاملا ثالثاً كان له أثر فى تلوين الافكار الحديثة بلون جديد وتحويل فلسفة القرون الوسطى الى الفلسفة الحديثة وذلك العامل هو « العلوم الطبيعية » فالعلوم الطبيعية هى التى هدت الفلسفة الى الاستقلال فى العمل . ودليلنا على ذلك أن الاستكشافات العظيمة الحديثة التى وسعت نطاق الجغرافيا — من رحل كولمبس = وفاسكوده جاما وماجلان — وما أبانه كوبرنيكس من نظام العالم ، والبحث العلمى الذى بحثه ستيفينس وتيكوده براهى وجليلو وكبلر وجلبرت لما كانت تصحب رقى الفلسفة الحديثة كان لابد من أن يكون للعلوم الطبيعية — التى تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه

---

(١) ليلاحظ القارئ أن المؤلف انما يتكلم على ما كان للكنيسة فى أوربا من السلطان وهو يختلف اختلافاً كبيرا عن الحالة فى الشرق فشتان بين سلطة رجال الدين فى الشرق وسلطانهم العظيم فى القرون الوسطى فى أوربا (المعرب)

فى العصور القديمة — أثر كبير فى هداية الفكر فى العصور الحديثة

قال فندلبند : (كلما انفصلت الفلسفة عن الدين وكانت علماً كونياً مستقلا كانت مهمتها التى يجب ان تؤديها هى أن تبحث فى علوم الطبيعة ، والى هذه الغاية كانت تتجه كل ابحاث الفلسفة زمن النهضة،حتى ان شعارها كان « لتكونن الفلسفة علماً طبيعياً»)

١٠ من هذا نرى ان النهضة والاصلاح الدينى أطلعا فجر الفلسفة الحديثة وهى — مع مخالفتها لفلسفة القرون الوسطى مخالفة كبرى — تشبه تاريخ تطور العقل عند القدماء مشابهة كبرى،وتسير فى نفس الطريق الذى سلكه، فان الفلسفة الحديثة من أيام النهضة فما بعد تتبع سنة النشوء والارتقاء،وتنتقل من طور الايمان والاعتقاد الى طور التعقل ، وذلك كان الشأن عند القدماء

اول ما أخذ الفكر يفيق من سباته الطويل بدأ يعرض الدين والنظم التى بنيت عليه للبحث والنقد الهادم . ومن مميزات عصور الانتقال حدوث النزاع بين الآراء المتنوعة والنظريات المختلفة ، بين القديم والجديد — ويتلو ذلك عادة عدم الرضاء عن الماضى لفساده والرغبة فى نظام

جديد خير مما سبقه. فبينما ترى القديم آخذاً فى التداعى اذا بالجديد لايزال فى طور التكون ولم يستقر بعد على شكل. واذ ذاك ترى العقل يتراوح بين تعطش لمثل جديدة، وآراء جديدة، ووضع نظريات للعالم جديدة، وبين البحث فى القديم يتخذ منه دعامة للجديد، وترى العقل — اذا قوى شعوره بقوته ونزع الى الثورة — يتحرر من قيود الدين ويبعث من نوم عميق سببه الدين، لأنه ظل يستدرج الانسان بما يهمسه فى اذنه همساً خفيفاً حتى نام واستغرق، ويبتدىء نمطاً فى الحياة جديداً، وهو مع كل هذا لايزال يتعلق بالماضى ويتشبث به، فتتمشى الآراء القديمة مع النظام الجديد، وتستخدم الاشكال القديمة فى البناء الجديد

وهذا بعينه ما كان عندما انبثق فجر الفلسفة الحديثة. فقد كانت وجهة الفكر فى القرون الوسطى دينية محضة، وكان الدين هو الذى يحدد أغراض العلم ويسن نظم البحث، ولم يكن عنوان الرقى العقلى الاصلاة طويلة مستمرة، وكان البحث الفلسفى انما يدور حول الآخرة وعالم الغيب. حتى اذا كانت الاسباب التى ذكرنا من قبل دعا داعى الثورة والانقلاب فاشتد الهياج على النظام الموجود، والمبادىء القائمة، وزاد سخط الناس على مالديهم من عقائد عتيقة، فاعلنت الحرب على

كل نوع من أنواع السلطات وطولب بحرية الفكر » (١)
وكان موقف الفلسفة الحديثة فى عالم الفكر كموقف
البروتستنتية فى عالم الدين ، « كل طالب بالاصلاح وكل دعا
الى التغيير » «وأصبح الحق فى نظر الناس ليس ما اعتبر حقاً
منذ قرون ، ولا ما قال عليه فلان أنه حق سواء كان
القائل أرسطو أو توماس أكويناس أو غيرهما ، انما الحق
ما برهن لى عليه واقتنعت بكونه حقاً » (٢) ويتميز هذا
العصر بحرية الفكر واستقلاله وبكسر القيود التى غله بها
رجال الدين (٣) فتداعت عقائد القرون الوسطى الجافة
ونبذت آراؤها وأهمل الجدال فى عالم الغيب ، ولكن لم
تكن الآراء الجديدة قد استقرت بعد بل كانت فى طور

---

(١) فلكنبرج (٢) فلكنبرج

(٣) لم يرد المؤلف من كلامه الماضى ولا مما قاله هنا طرح الأديان والخلاص من كل دين انما يريد أن يكون الدين ديناً مصحوباً بعقل ، ديناً لا يمنع الانسان من النظر والفكر ، دين اجتهاد لا دين تقليد فان كان كذلك فلست اعرف اى ضرب من ضروب الفلسفة يستنكره ولا يرضاه — بالدين يحيي القلب وبالفلسفة يحيى العقل ولا بد للانسان من قلب وعقل فاذا اجتمع للانسان دين راق يحيي قلبه ولا يقيد عقله وفلسفة متواضعة لا تعدو طورها ولا تقصر ايمانها على ما ترى بعينها وتترك للقلب مجاله فذلك هو الخير كل الخير (المعرب)

التكون — وقد كانت الفلسفة فى طور تكونها تنظر الى الماضى ولست أعنى ذلك الماضى القريب الذى كانت هى على وشك أن تفارقه ، وانما أعنى الماضى البعيد وعهده القديم — عهد الاغريق والرومان — واعتاضت بما وجدته فى ذلك العهد عن عقائد القرون الوسطى « وبذلك جرت الفلسفة فى مجرى النهضة ومذهب الانسانية وسار ذلك المجرى من ايطاليا فعم العالم المتمدن كله »[1] وقد ذكرنا قبل أن الفلسفة الحديثة من عهد النهضة كانت أميل الى الاتجاه نحو الطبيعة ، وكان الفكر الحديث — بدافع الروح اليونانية — منصرفاً الى الطبيعة وعلومها ينظر فيها نظراً غير متحيز — كما كانت الحال عند الاغريق — وبعثت الافكار اليونانية على الرغبة فى تعرف العالم من جديد ، وحق ما قيل « ان الذى يقصد الى الفلسفة الطبيعية أو الفنون والآداب كذلك ، لا بد أن يعرج على اليونان ، هذا ولم تكن الفلسفة الحديثة طبيعية فحسب بل كانت فردية أيضاً فقد كان من خواصها لفت عقل الفرد وتحريره من رق الايمان ، وكان من أغراض الحركة الحديثة تقرير حق الافراد فى الحكم على الاشياء ، والترخيص لكل فرد أن يبحث أى شيء وينتقده ، غير مقيد فى ذلك

---

(١) فلكنبرج

بأى سلطة خارجية ، وعلى الجملة فقد تقرر أن يكون لعقل الفرد القول الفصل فى الحكم على الاشياء ، وبذلك فشا الاعتقاد بأن العقل قادر أن يحل كل ألغاز العالم ويصل الى أبعد أسرارها ، وعلى هذا الاساس بنى ديكارت وسبينوزا وليبنتز نظمهم الكبرى « فيما بعد الطبيعة » ويسمى مذهبهم مذهب « العقليين »

١١ وهذا الميل الى اخضاع كل شيء لبحث العقل أدى الى وضع العقل نفسه تحت البحث ، فصار كل من العالم المادى والعقلى خاضعاً للنظر والامتحان ، وكان الشأن فى العصور الحديثة كالشأن عند اليونان ففى كليهما جاء أولا عصر النظر فى الكون ثم شفعه عصر النظر فى الانسان نفسه ، فتوجه النظر فى البحث فى أصل معرفة الاشياء ، وتحول مجرى الفكر الى الابحاث النفسية (السيكولوجية) وأخذ الانسان يسأل : ما أصل المعرفة والادراك وما منبعهما ألعقل أم التجربة ؟ بحث فى هذه المسائل وأمثالها « جون لوك » الذى نهج منهج « ديكارت » واختار كسلفه « بيكون » ان أصل المعرفة التجربة لا العقل . وانتشرت نظرية « التجربيين » القائلة بأن المعرفة مستقاة من التجربة فى انجلترا كما إنتشرت نظرية « العقليين »

القائلة بأن أساس المعرفة العقل فيما عدا انجلترا من ممالك أوروبا وقد قارن « فلكنبرج » بين خصائص العقل فى الممالك الثلاث الكبرى التى كان لها الحظ فى الفلسفة من عهد « ديكارت » الى عهد « كانت » فقال « ان الفرنسى تغلب عليه حدة الذهن ، والانجليزى البساطة والوضوح ، والالمانى التعمق والتفكير ، ففرنسا منبت الرياضيين ، وانجلترا منبت العمليين ، والمانيا منبت المفكرين النظريين . فالاولى موطن الشكاك المرتابين ، كما انها موطن المتحمسين ، والثانية موطن العمليين الواقعيين ، والثالثة معهد المثاليين »

وقد جاء بعد « لوك » « دافيد هيوم » — وهو من اكبر من يتجلى فيه مظهر الفكر الانجليزى من حيث العمق والثبات فرقى ما قاله « لوك » فى التجربة واوصله الى فلسفة الشك[1] والفلسفة الوضعية [2] وهذا النحو من التطور يشبه التطور العقلى عند اليونان . ونظرية الشك هذه التى اسسها « هيوم » أثارت فى اسكتلندا الميل الى استعمال العقل

---

(١) فلسفة الشك ضرب من الفلسفة يعرض كل حقيقة للشك ويشك فى كل المبادىء فلسفية كانت أو دينية

(٢) الفلسفة الوضعية positivism مذهب من الفلسفة يقول « ان العلم الذى يمكن تحصيله هو العلم بالظواهر لا غير » . (المعرب)

فى البحث « كما أنها ساعدت عالماً المانياً يشبه « هيوم » بل اعظم منه نفساً على الخلاص من قيود الاستسلام ومن قبول المسائل من غير بحث وشجعته على وضع نظامه الانتقادى » وذلك العالم هو عمانويل كانت

من ذلك نرى أن الفلسفة الحديثة اتبعت فى تطورها الطريقة التى جرى عليها الفكر عند اليونان ، فالفلسفة اليونانية كانت أيام طفولتها فلسفة طبيعية ، تبحث فى عالم الطبيعة ، ثم تحول البحث الى الانسان وقواه الباطنة فبعد ان كانت الفلسفة فلسفة نظر فى الكون صارت فلسفة انسان (فلسفة أنثروبولوجية) ثم آلت الحركة التى قام بها السوفسطائيون الى الشك فى الحقائق . وهذا بعينه هو الطريق الذى سلكه الفكر الحديث فقد كان مجرى الفكر متجهاً نحو الطبيعيات عند ما فارق منبع النهضة ، ثم اتجه نحو الانسان عند اجتيازه هولندا وألمانيا وفرنسا، ثم ارتقى فاتجه الى البحث فى « نظرية المعرفة » عند وصوله الى انجلترا ، ثم وصل فى النهاية الى الشك والارتياب . وكما مهد السوفسطائيون بشكهم الطريق للاصلاح الذى قام به سقراط ولنظام افلاطون « المثالى » فكذلك الشك الذى أسسه « هيوم » مهد السبيل للاصلاح الذى قام به « كانت »

والذى كان منـه « مذهب المثال الالمانى » [1] وحقاً ان « هيوم » قوض ماقاله « لوك » من اساسه

وانبعثت من أقوال « هيوم » شرارة كادت تشعل ماحولها لو أنه قدرلها ان تقع على مادة سريعة الالتهاب ولو أنه رُوّح علىما أصابت . وكان لاقواله أثر فى « كانت » فانها جعلته ينتبه من سنته وينبذ طريقة التسليم من غـير بحث [2] وقد سار مذهب العقليين مع مذهب التجربيين جنباً الى جنب وان كانت كل فرقة منقسمة على نفسهـا وهى فى حرب عوان مع الاخرى حتى جاء « كانت » فحاول أن يوفق بين المذهبين ويزيل الخلاف بينها بتجديد

---

(١) ترجمنا كلمة Idealism فى علم الجمال بمذهب الكماليين وفيما وراء الطبيعة — كما هنا — بالمثاليين مراعاة للمعنى ومذهب المثال الالمانى هـذا يرى ان مثال الاشياء فى الذهن وبعبارة اخرى صورة الشىء الذهنية تخالف الاشياء نفسها فى الواقع ولهـذا المذهب اشكال مختلفة فمذهب يرى ان ليس للاشياء الا مثالها الذهنى وليس لها وجود خارجى ومذهب يرى الوجودين الذهنى والخارجي ولكن يقول انهما ليسا متطابقين (المعرب)

(٢) تصرفنا فى هذه الجملة لانا رأينا الاصل لا يتفق مع سياق الكلام واعتمدنا فى تغيـيرها على ما ذكره فندلبند فى هـذا المعنى ص ٥٣٧ (المعرب)

دائرة لكل من العقل والتجربة، وتقويم كل باعتبار مايوصل اليه من الحقائق . وقد بحث كل من العقليين والتجربيين فى أصل المعرفة ولكنهما كليهما وثقا بالعقل البشرى واعتقدا بقدرته على معرفة الاشياء ، فلم يتعرض أحد منهما لموضوع « امكان معرفة الاشياء »[1] حتى أتى « كانت » فوجه بحثه نحو المعرفة نفسها ، وأثار البحث فى امكان المعرفة وأخضع العقل البشرى نفسه للبحث ، وقد سمى النظام الذى وضعه هذا العالم « بالنظام الانتقادى » تمييزاً له عن الطريقة التى كانت متبعة من قبل والتى لقبها هو « بطريقة التسليم » — بحث « كانت » فى أصل المعرفة وفى وجودها، فى منبعها وحدودها ، فى أساسها وفى صحتها . وبعد أبحاث « كانت » فى منبع المعرفة وشرح شروطها استطاع الانسان أن يحدد دائرتها ومجالها وما كان يستطيع ذلك من قبل ، وبذلك وجه « كانت » الفلسفة الحديثة وجهة جديدة ظلت متجهة اليها الى اليوم ، واليه يرجع الفضل فى مذهب المثال الالمانى الذى وضعه « فخته » و « شلنج » و « هجل ». وقد أضاف التقدم الحديث فى العلوم الطبيعية

---

(١) ربما كان فى هذا الموضوع غموض وسيأتى فى آخر فصل فى الكتاب شرح يزيل غموضه

الى تعاليم «كانت» ومذهب المثال الالمانى مسائل كثيرة جديدة ، وكان هذا المذهب يوجه أكبر اهتمامه للبحث فى أعمال العقل ، ولكن ما لبث أن التفت الانسان ثانية — ولا سيما فى انجلترا — للبحث فى تاريخ الانسانية وفى الاشياء الخارجية والعلوم الطبيعة ، وأصبح أهم نظريات العصر الجديد نظرية النشوء والارتقاء التى تشغل الآن أنظار أكبر الباحثين

(فصل فى تاريخ الفلسفة الاسلامية) يقول معرب هذا الكتاب « لم يذكر المؤلف كلمة واحدة عن الفلسفة الاسلامية وبعبارة أخرى « الفلسفة عند العرب » كأنهم لم يشتغلوا بالفلسفة ولم يعنوا بها . ولعل عذره فى ذلك أنه انما ألف كتاباً مختصراً لمبتدئين أوروبيين لا يهمهم كثيراً الا فلسفة بلادهم — واذ كنا قد نقلنا كتابه الى العربية رأينا من تمام الفائدة أن نزيد كلمة اجمالية عن الفلسفة العربية وتاريخها حتى نكون قد أتممنا للقارىء العربى الصورة التى ينبغى أن يرسمها فصل « تاريخ الفلسفة » فنقول :

كانت العرب فى جاهليتها أمة أمية ندر فيهم القارىء

والـكاتب ، ولم يعرف عنهم أنهم بحثوا فى علم ودونوه ، وهذا طبيعى فى الأمم المتبـدية ، وانما كانت لهم معارف أرشدتهم اليها التجارب والنظر ونوع المعيشة، فمعيشة كثير منهم مثلا فى الصحراء حيث السماء صافية والجو مفتوح ، وحاجتهم الى الامطار وهبوب الرياح ، لفت نظرهم الى السماء فعرفوا شيئاً عن النجوم ، وربطوا بها كثيراً من ظواهر الجو ، يدل على ذلك ما وضعوا من اسماء النجوم والمنازل والانواء. ولكنهم لم يبحثوا فى ذلك بحثاً علمياً ولا دونوه كما تدون العلوم ، ولم يكن لهم بالضرورة فلاسفة يدعون الى مذاهب معينة، ولا يضعون مبادئ للسير عليها فى الحياة كالذى رأينا عند اليونان، ذلك لأن العلم والفلسفة لا يكونان الا حيث تعظم المدنية، فيسهل تحصيل المعاش وتتوفر أسباب العلم — انما كان عند العرب حكماء وشعراء قاموا فيهم مقام الفلاسفة فى الأمم المتحضرة، يفوهون بالحكم وتعد أقوالهم أمثالا تؤثر فى نمط الحياة ، كالذى حكى عن لقمان الحكيم وأكثم بن صيفى ، وزهير بن أبى سلمى — وقد أثر فى حياتهم وعقولهم ما وصل اليهم من تعاليم الاديان السابقة ولاسيما دين ابراهيم عليه السلام واليهودية والنصرانية . ففشت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وكندة، وفشت النصرانية

فى ربيعة وغسان . وكذلك كان له الأثر فيهم ما نقلوه عن الفرس والروم والهند من القصص المشتملة على المواعظ والحكم ، وقد كانت التجارة واسطة النقل ، وكان العرب يكثرون التردد الى بلاد هؤلاء للتجارة

ثم جاء الاسلام (٦١٠ م) فوحد دينهم ولغتهم وأميالهم،وقد كانت متعددة ، وملك الدين عليهم نفوسهم فكانت الحياة حياة دينية ، وسياسة الحكومة سياسة دينية ، والتشريع تشريعاً دينياً. لذلك كان البحث فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الاموية (الى سنة ١٣٢ هـ) انما كان بحثاً فى الأمور الدينية أو ما يتعلق بها ، والسبب فى ذلك — ١ — ان المسلمين رأوا ماصارت اليه دولة الاسلام من العز وكثرة الفتوح، وهم يعلمون أن لا سبب لذلك الا دينهم الجديد فزادهم ذلك اتجاهاً نحوه — ٢ — ان كثرة الفتوح واتساع المملكة يستدعى حدوث أمور لم تكن فى عهد المشرع وليس لهم أن يحكموا فيها بمجرد الرأى بل يعتقدون وجوب الاستعانة بقواعد الدين ولا يمكنهم ذلك الا اذا اشتغلوا بالدين — ٣ — ان القرآن ملك عليهم نفوسهم من نواح كثيرة من ناحية البلاغة وحسن القصص ولفت النظر فدعاهم ذلك الى الانكباب عليه

من أجل هذا كله كان مدار البحث فى هذا العصر هو الدين . ومن نقل خبرهم من علماء هذا العصر هم علماء دين الا قوماً ترجم لهم صاحب كتاب « عيون الانباء فى طبقات الاطباء » والظاهر أن هؤلاء كانوا يمارسون الطب على أنه صناعة لاعلم، والا ماحكاه ابن خلكان فى ترجمة خالد بن يزيد (توفى ٨٥ هـ) من أن له كلاماً فى الكيميا والطب ورسائل دالة على معرفته وبراعته ، وفى ترجمة جعفر الصادق (٨٠ — ١٤٨) أن له كلاماً فى صناعة الكيميا — والكيميا التى اشتغل بها خالد وجعفر — ان سلم أنها علم كان يشتغل به — لا يطعن فيما نقول من ان العلم الشائع لهذا العصر هو علم الدين

وفى آخر الدولة الاموية كانت لهم أبحاث دينية مما هو من أبحاث علم الكلام أو ما بعد الطبيعة ، فبحثوا فى حرية الارادة وأن الانسان مجبور أو مختار، وفى مرتكب الكبائر أمؤمن أم كافر، وفى خلق القرآن ونحو ذلك، وانحاز المسلمون الى فرق وتجادلوا وكل يدلى بالحجة ، وبحثوا كذلك بحثاً سياسياً مصبوغاً بالصبغة الدينية فيمن يكون خليفة المسلمين وما ينبغى ان يستوفيه من الشروط، وكان للخوارج الفضل فى اثارة الاذهان للبحث فى هذه المسائل السياسية ولكن شيئاً من ذلك لم يدون كأنه علم

فلما جاءت الدولة العباسية « ١٣٢ – ٦٥٦ هـ » عظمت حضارة المسلمين، وهضموا ما أخذوه – بالفتح – عن الفرس والروم والهند، ونقلوا علوم الأمم التي سبقتهم في المدنية ولاسيما الهند واليونان . وفي زمن أبي جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم، ولا سيما المأمون، توسع الناس وخاصة السريانيين – في ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات والهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق – الى اللغة العربية فترجموا في القرن الثاني والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة ويختصرونها أخرى، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بحق فلاسفة .

وكان أغلب مؤسسي الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء في الطبيعيات أكثر منهم رجال دين، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب في القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الالهيات بل كان البحث في الطب القديم والعلوم الطبيعية

عندهم يسير جنباً لجنب مع البحث فى الالهيات وما وراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس فى الطب وأقليدس فى الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو فى الالهيات (١)

غير أنه يظهر أن ما ابتكروه من عند أنفسهم قليل اذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم أنهم فى بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الاعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين ما لم يصل اليها اليونان قبلهم ، ولكنهم فى غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والاخلاق كانوا نقلة أكثر منهم مبتكرين ، وكانوا فى طريقتهم العلمية ونظامهم فى البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثراً عظيماً بفلسفة أرسطو والافلاطونية الحديثة

ولهم الفضل على الغرب بكل مما نقلوا أو ابتكروا، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليه الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم اياها ، كما أن كثيراً من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد — بحق — من أسس المدنية الغربية

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون

---

(١) أنظر فنداليند صفحة ٣١٦

الفلسفة « الافلاطونية الحديثة » (وهى مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر فى أواخر القرن الثانى الميلاد ، وكان مقره الاصلى الاسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحى والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون ، وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة » ومن أشهر دعاته أفلوطين ولد فى مصر سنة ٢٠٤ م قيل أنه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم فى رومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ وكانت تعاليمه مزيجاً من الفلسفة العلمية والتصوف الدينى) والذى دعا المسلمين الى اعتناقهم هذا الضرب من الفلسفة انها كانت فاشية لعهدهم فى الشام وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر فى فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد فى فلسفة أفلاطون وأرسطو نظروا اليهما بعيون متأثرة بالافلاطونية الحديثة

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندى ويلقب « بفيلسوف العرب » لأنه عربى صميم تبحر فى الفلسفة وقد كان تابعاً للافلاطونية الحديثة وتعاليم أرسطو اكثر منه فيلسوفاً مستقلا ، واكثر ما له من الفضل جاء

من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له فى عهد المأمون والمعتصم كتب كثيرة بعضها ترجمة وبعضها تأليف وصل الينا من أسمائها نحو ٢٥٦ كتاباً عدها صاحب أخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هـ

• وجاء بعده أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ عاش تحت كنف سيف الدولة بن حمدان وكان يعرف لغات كثيرة وبرز فى الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندى تابعاً للافلاطونية الحديثة (وان لم يعرف هو هذا الاسم) وتعاليم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد « كتاب النفس » لارسطو وعليه بخط الفارابى « انى قرأت هذا الكتاب مائة مرة » وقد لقب بالمعلم الثانى — والمعلم الاول هو أرسطو — لحله معميات الفلسفة اليونانية ، وكان الفارابى كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وسنة حق ، وأن الفلسفة حق ، والحق لا يتعدد ، فوجب أن يكون الفلسفة والاسلام متفقين ، غير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية — كما كان ينبغى أن ينظروا اليها — من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضاً ،

وأن ما يذهب اليه أرسطو فى مسألة قد يكون مناقضاً لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتئمة ، وقالوا أن أفلاطون قد يختلف مع أرسطو فى طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما فى الفلسفة واحدة ، [١] — وصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاها فورفريوس « وهو من أصحاب مذهب الافلاطونية الحديثة » وتعاليم أرسطو كما حكاها متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان ، ولا سيما فلسفة أرسطو ، خلط وتشويش . يدل على ذلك أنه فى زمن المعتصم ترجم أحد نصارى لبنان جزءاً من أنيده [١] أفلوطين الى العربية وسماه « لاهوت أرسطو » ! وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول ، وعدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحاً لحقيقة واحدة ، فبذلوا جهداً عظيما فى التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو ، وزاد عليهما المتدينون « القرآن » وهذا ما فعل الفارابى ، فقد كان مؤمناً بأقوال أرسطو وأفلاطون منزهاً للقرآن عن الخطأ ، فمزج اللوح والقلم

---

(١) انظر Boer ص ١١١ و Mackdonald ص ١٦٢

(٢) لافلوطين ٥٤ كتاباً ذكرها تلميذه فورفريوس ويطلق عليها اسم انيده Enneads

والكرسى والعرش والملائكة والسموات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع ما بين أجزائها من التناقض، ومحاولة ذلك تستدعى ذكاء نادراً وتصوفاً و «كشفاً» وغموضاً وسبحاً فى الخيال

وبحث الفارابى كذلك فى السياسة فى كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» واختار من اشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية ومزج فى هذا الكتاب بين آراء أفلاطون فى «الجمهورية» وبين أقوال الشيعة فى الامام المعصوم اذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرب الفارابى وحاميه شيعياً[1].

وممن لهم أثر كبير فى الفلسفة الاسلامية جمعية شبه سرية تسمى «اخوان الصفا» اجتمعت فى البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الاذى بالفلاسفة، وقد عد القفطى فى أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين فى جميع الأقطار الأسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية — قالوا «ان الشريعة قد

---

(١) انظر Mackdonald ص ١٦٥

دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية » «وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال »[1] فألفوا أحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم فهى « دائرة معارف » تشتمل على معارف العرب اذ ذاك باختصار ، قالوا فى أول هذه الرسائل « ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى علم النفس ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها ، ونحن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيها وأوردناها بأوجز ما يمكن من الالفاظ والاختصار فى أحدى وخمسين رسالة اه »

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجاً من أبحاث « الافلاطونية الحديثة » والتصوف وما قاله ارسطو فى العلوم الطبيعية وما قاله الفيثاغوريون فى العدد « الرياضة » وقد كان لها أثر كبير فى العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والتشويش ما ذكر قبل . وقد ظن بعض

---

(١) أخبار الحكماء

الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية « اسماعيلية » لما بين مايجيء فيها أحياناً و بين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت(وكانت في يد الاسماعيلية) على كثير من نسخ الكتاب [١]

. وكان لأبي علي بن سينا البخاري (٣٧٠ — ٤٢٨) شهرة فائقة في الفلسفة ، وفلسفته تقرب من الفلسفة الارسطاليسية الصرفة ، و ربما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها ، وكتابه « القانون » كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معاً [٢] وله فضل كبير في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولا سيما الالهيات والمنطق — هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيروني وابن مسكويه وابن الهيثم

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سبباً في حركة جديدة قام بها المتكلمون (علماء الكلام) يريدون بها مقاومة تعاليم أرسطوو أفلاطون والافلاطونية الحديثة المتعلقة بالالهيات أو الرد عليها ودحضها فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة

---

(١) Mackdonald ص ١٦٩

(٢) فندلبند

فبحثوا فى العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها ، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلاسفة فحسب بل الى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الاشعرى وامام الحرمين والباقلانى ، ولكن احدا منهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولا رد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ) فدرس الفلسفة اليونانية درسا دقيقا — كما حدث هو عن نفسه — ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها والف فى ذلك كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالى من الفلسفة ، ورغب فى التصوف وأبان انها الطريق الحق الى الله ، وكان بليغاً فى قوله مخلصاً في حديثه سهل العبارة قوي الحجة ، فأثر ذلك فى المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية وحبب ذلك الى الناس . وسار على طريقة الغزالى كثيرون من بعده

هذا مجمل حال الفلسفة فى الشرق أما فى الغرب أعنى

فى الاندلس وشمالى افريقية فقد أزهرت الفلسفة — حيناً — اكثر من أزهارها فى الشرق . وكان فلاسفة الاندلس والمغرب اكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ؛ وكان يندر بين مسلمى الاندلس الخلاف فى العقائد والمذاهب كالذى كان عند المشارقة ، فكلهم الا القليل مالكى سنى ؛ أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رحل اليه رحلوا عن طريق القاهرة وامعنوا فى الرحلة حتى الى فارس وانتفعوا بعلومهم ، وجاء الحكم الثانى « ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ » فبعث فى شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار فجمعوا اليه كتبا جمة ، فاشتغل الاندلسيون بالرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد ان نقلت اليهم كتب الفارابى ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا وقد تعاون المسلمون واليهود معاً على الاشتغال بالفلسفة فى الاندلس ، ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون ، مع مقاومة العامة وأشياعهم بمقاومة أشد من مقاومة المشارقة

ومن أشهرهم — ١ — ابن باجه وقد اتبع تعاليم الفارابى — ٢ — وابو بكر بن طفيل (مات سنة ٥٣١) وصل الينا من تآليفه رواية « حى بن يقظان » وكان بطلها « حى » يعيش فى جزيرة لا يسكنها أحد من الناس وليس له علاقة

أحد من أهل الجزائر الاخرى ، بحث بعقله بحثاً منطقياً متدرجاً من البسيط الى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله ، وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل ، وقد ترجمت الى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبنصن كروسو [١] و(٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الاندلس على الاطلاق (٥٢٠ — ٥٩٥) كان يعد أرسطو اكبر الفلاسفة وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت اليه، ودافع عن الفاسفة وألف كتابه « تهافت التهافت » رداً على الغزالى فى طعنه على الفلسفة ، وأبان فى كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين ، وألف فى ذلك كتاباً صغيراً سماه « فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال » واكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وانما موجود ترجمتها، من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالى رتبت

---

(١) فندلبند — ورواية روبنصن كروسو أحدى الروايات الانجليزية الشهيرة لمؤلفها « ديفو » فرض فيها بطل الرواية قد عاش فى جزيرة وحده بعد ان كسرت مركبه وأمكن ان يصل بعقله الى كثير من الامور

وطبعت باللاتينية فى البندقية سنة ١٥٦٠ م فى أحد عشر مجلداً ، وترجم له كتاب فى الطب طبع كذلك فى البندقية ، وله كثير من المؤلفات مترجم الى اللغة العبرانيـة . وكان لفلسـفته شهرة فى الـكنائس والمدارس الاوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) .

وبانتهاء القرن السادس الهجرى تقريباً وقف المسلمون عن البحث الفلسفى والنظر فى العلوم الـكونية ، ولم يكن العـلم الا نقلا ، فالمؤلف ينقل عمن قبـله فحسب ، حتى لا تكاد تجد فى كتاب جملة ذات معنى جديد ، والمعلم انما يعلم ما سمع من اساتذته ، والاختلاف الذى يظهر بينهم انما هو اختلاف فى الشكل لا فى الجوهر (وليس ثمت مجال للبحث فى أسـباب ذلك) ولم ينبغ منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة الا ابن خلدون (المتوفى سـنة ٨٠٨ هـ) فانه باجماع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيـه فى الشرق والغرب الى القرن التاسع عشر الميلادى ، فبحث فى « أحوال العمران ، فى الملك والـكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانيـة » وكما قال هو فى مقدمة كتابه ان كثيراً قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصـده ولا

استوفوا مسائله « وأمل ممن يأتى بعده أن يستمروا فى البحث ويضعوا ما فاته من المسائل . . . وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذى حققها هم المسلمين »[1] بل أوجست كومت وسبنسر وأمثالها « وكما كان ابن خلدون فى هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لاحق »[1]

وأمل من عداه فداروا فى دائرة ضيقة وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصروا نظرهم على كتب للمتأخرين محدودة لا تبعث شوقاً الى علم ولا تهيج العقل الى بحث ، قد الغزوا فى معانيها وركزوا ألفاظها ، فوجه المتعلمون أعظم جهدهم الى حل معمياتها وتفسير أغراضها وقليلا من الجهد — ان كان — الى نفس الموضوع .

وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطاً بعيداً فى الغرب ، والشرق جامد فى مكانه ، وبدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه ، ويصارع الكسل والكسل يصرعه ، حتى ازعجته الحوادث وأقلقت راحته ضوضاء احتكاك الشرق بالغرب ، فانتبه متأخراً وأحس بتأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره فى شؤون الحياة ، وما

(١) انظر Boer ص ٢٠٨

أحوجه اليوم الى هداة يضيئون له السبيل، ويأخذون بيده في هذا المعترك اللجب ، وينقلون اليه زبدة ما وصل اليه الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرقي، ويكونّ له مدنية وعلماً تتفق مع ذوقه وجوه ودينه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

الـكتاب الثانى

مسائل الفلسفة ومذاهبها

الفصل العاشر

مقدمة

١ — ان الموضوعات التى تبحث فيها الفلسفة والمسائل التى تحاول حلها لعديدة ، فكل ماهو علمى محض أو يترتب عليه فائدة عملية للانسان داخل فى نطاقها ، ونحن نرتب تلك الموضوعات والمسائل على حسب الاجابة عن ثلاثة أسئلة كبرى : ما وكيف ولماذا ؟

ما حقيقة الموجود ؟ وكيف وجد ؟ تلك معميات نيط بحلها « علم ما بعد الطبيعة » . ماذا نعرف عن الاشياء الموجودة وكيف نعرف ؟ اسئلة تشتغل بالبحث عنها فلسفة المعرفة . ماذا ينبغى ان نعمل ؟ ولم نعمل فى طريق خاص دون غيره ؟ اسئلة يجيب عنها علم الاخلاق . وعند الاجابة عن هـذه الموضوعات كلها نشأت مذاهب ونظم فلسفية متنوعة ، فكل انسان وكل فيلسوف اجاب عنها حسب رأيه واخلاقه — وربما زدنا — وحسب الظروف المحيطة به

وحسب تربيته وروح العصر الذى هو فيه ، وقد لاحظ « نختة » ملاحظة صحيحة أن نوع الفلسفة الذى يختاره الانسان مرتبط ارتباطاً كبيراً بطبيعة الانسان نفسه ، ويجب ان يزاد على ذلك انه مرتبط كذلك بروح العصر .

وليس للفلاسفة من الزمن ما يكفى للبحث فى كل المسائل ، فالحياة قصيرة والعقل البشرى محدود ومحصور مهما كان متوقد الذكاء واسع النظر، ولهذا شغل كل طائفة من الفلاسفة بالبحث فى طائفة من المسائل، فتنوعت النظم الفلسفية ولم يكن التنوع قاصراً على ان كل جماعة خصصوا انفسهم لدراسة نوع خاص من المسائل فحسب بل هم قد يختلفون فى المسألة الواحدة وتتنوع اجاباتهم عليها، ويمكننا مما تقدم أن نقسم المسائل الفلسفية الى ثلاثة اقسام :

«١» مسائل ما بعد الطبيعة او علم الوجود
«٢» المسائل الأخلاقية
«٣» المسائل المتعلقة بنظرية المعرفة

الفصل الحادى عشر

مسائل ما بعد الطبيعة

١ على هرم فى هيكل «ايزيس» Isis بصا الحجر Lais[1] نقش قديم يتضمن الكلمات الآتية :

«أنا كل شيء كان وكل شيء كائن وكل شيء سيكون ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى» أما العلم الحديث فيعتقد أنه كشف هذا الحجاب وأن «القوة» و «المادة» هما كل شيء كان وسيكون . وليس هذا موضع البحث فيما اذا كان مايزعمه العلم حقاً أو باطلا ، وانما الذى نريد أن نقوله أن العقل البشرى بذل جهده فى رفع النقاب وحاول معرفة هذا السر المحتجب بحمية وغيرة ولكن لا نتعرض للحكم بنجاحه أو خيبته

طالع العقل البشرى لغز هذا العالم من وجوه عديدة وشرحه وكان السؤال الاول من بين الاسئلة الثلاثة

---

(١) ايزيس Isis آلهة مصرية زوجة اوزيريس انتشرت عبادتها من مصر الى اليونان وروما وكانت عبادتها تنافس النصرانية و Lais هى صا الحجر وهى فى مركز كفر الزيات تبعد عن فرع رشيد بنحو الف متر (المعرب)

التى لا ينفك يحاول الاجابة عنها — واعنى بها (١) ماحقيقة الموجود ، الذى هو من اختصاص ما بعد الطبيعة (٢) وما حقيقة المعرفة (٣) وما ذا ينبغى للانسان أن يعمل — هو أهم ما هيج فى الانسان الميل الى حب الاستطلاع، واختلف الفلاسفة فى الاجابة عنه فى العصور المختلفة ، ونشأ عن ذلك مذاهب فيما بعد الطبيعة عديدة

لو انا سألنا انسانا عاديا عمليا : « ما الموجود ؟ » أجابك من غير تردد بقوله : « كل شىء حولى موجود وكثيرة هى الاشياء ، فكل ما أرى وأسمع ، وكل ما امسك والمس ، والسماء ، والارض ، والاشجار والانهار ، والشمس والنجوم ، والطير فى الهواء ، والسمك فى الماء ، والوحوش فى الغابات ، وعلى الجملة كل ما أرى وأمسك والمس كائن موجود — ولكن يرى الانسان بين هذه الموجودات فروقا واختلافا ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع « طائر وغير طائر » متحرك وغير متحرك ، والمتحرك حى ، وغيره فاقد الحياة ، والحى اذا لمسه الموت فقد الحركة

انى لنا هذه الاعضاء وتلك القوة العاصفة التى فينا ، ودم الحياة وما يبعث من شهوات ، ثم بعد قليل يصير ذلك

كله ترابا ، ويذهب التراب هباء كأن لم يغن بالامس ؟ هنا يتساءل عن علة هذا التغير وتلك التقلبات

وقد وضع الشاعر « بيرون » الابيات الآتية على لسان قابيل وقد رأى اخاه « هابيل » ميتاً ولم يكن رأى الموت قط .

أخي ما دهاك وكنت صباحاً
قوى الفؤاد قوى البدن
على العشب ملقى فماذا عراك
أنوم ؟ وما الوقت وقت الوسن
سكنت وامسك منك اللسان
وهل مات حى اذا ما سكن ؟
الا ما هلكت وان كان فى
شحوبك معنى يهيج الحزن

وصل العقل البشرى الى نتيجة وهى أن هناك شيئاً لا يدركه النظر ، ندركه بعقولنا ولا ندركه بعيوننا ، ليس بمادة ولكن يسكن الاجسام الحية ، وذلك هو الروح أو النفس . وهى التى تمنح ما تحل فيه حركة وحياة ، فاذا انسلت منه فلا حياة ولا حركة . وترى الأمم مجمعة على الاعتقاد بالروح حتى أن علم اللغة أثبت انه لم تخل لغة

من لفظ يدل عليها — فالانسان من مبدأ امره يميز بين المادة والروح — حتى من قبل أن يتفلسف، فالمادة تفنى والروح تبقى قال « بيرون »

وهيهات لاتفنى جميعاً وانما

لديك من الاسرار باق مخلد

ولما لم يقنع الفيلسوف بهذه الاقوال المبهمة الساذجة حاول أن يضع مبدأ أساسياً يحيط بكل موجود، وعنه يصدر كل شيء، قال قائلون: « لاشيء غير الروح وليست المادة الا ظاهرة من ظواهرها » ويسمى هؤلاء بالروحانيين . وقال آخرون « لاشيء غير المادة وليست الحياة والحركة الا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها، حتى اذا عرا المادة الانحلال فلا حياة » ويسمى هؤلاء بالماديين . وذهبت طائفة ثالثة الى أن هناك أساسين متحدين امتزج بعضهما ببعض، وهما المادة والروح ، ويسمى هذا المذهب « بالاثنينية » تمييزا له عن القولين الاولين الذاهبين الى أن هناك أساساً واحدا اما المادة أو الروح ، ويسمى مذهب هؤلاء « بالواحدية »

المادية والروحانية

٢ فى احدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة فى حائط صورها « روفائيل » تسمى مدرسة أثينا ، مركز هذه

الصورة أرسطو وأفلاطون ، يحيط بهما أتباعهما وتلاميذهما وفيها يشير افلاطون باصبعه الى السماء ، وارسطو يصغى الى قوله بفتور مشيرا بيده اليمنى الى الارض . هذه الصورة تمثل تاريخ المذاهب فى أثينا ، بل وتمثل تاريخ الفكر الانسانى والنظريات الفلسفية فى كل العصور ، تمثل المادية والروحانية اللتين ثارت الحرب بينهما من ذلك العهد الى الآن ، فالروحانية تشير الى السماء والمادية الى الارض

المادية

٣ تطلق « المادية » على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للاشياء ترجع الى أساس واحد (هو المادة) ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شيء واحد ، ويذهب الى أن المادة أساس كل شيء ، وينكر وجود روح قائمة بنفسها قد تتصل بالمادة وقد تنفصل عنها « كالحصان يربط فى العجلة ويحل منها » قال موليشت « مضى الزمن الذى كان يقال فيه بوجود روح مستقلة عن المادة »

فالماديون يرون أن لاشيء غير المادة ، مخالفين فى ذلك الروحانيين، كما انهم يخالفون الاثنينيين القائلين بأن الظواهر لاترجع الى شيء واحد بل الى اصلين : المادة ، والروح أو العقل. ويرى هؤلاء الماديون أن مانسميه العقل ليس الا

شكلا من اشكال المادة الدائمة التغير والتنوع وليست المادة كتلة عديمة الحياة لاحراك بها ، تأتى اليها الروح وهى منفصلة عنها فتنفخ فيها وتنتج حياة ، وانما القوة ملازمة للمادة ومظهر من مظاهر المادة المتنوعة ، والحياة والفكر ليستا الا صفتين غريزيتين للمادة ونتيجة لامتزاج جزيئات المادة مزجا معقدا .

وليس القول بوجود قوة وروح واله منفصل عن المادة يسبح فوقها يدفعها ويسخرها الا قولا خاملا هراء فى نظر المادى العصرى « موليشت » ومن السخف عنده القول بوجود روح مجردة وقوة خالقة مغايرة للمادة .

نكرر القول (على مذهبهم) بأن كل الظواهر النفسية ليست الا وظيفة لاحد اعضائنا — وهو المخ — فالافكار والارادات والعواطف تتوقف على قوة المخ وعمله وحجمه وتركيبه ، وعلم النفس انما هو فرع من علم وظائف الاعضاء يبحث فى المخ ، وليس الفكر الا حركة للمادة ينعدم بانعدامها،واعمال العقل مظهر خاص لقوة حية نشأ عن تركب المخ تركبا خاصا ، والانسان يفكر بواسطة المخ كما يهضم بواسطة المعدة ، وليس القول بوجود نفس منفصلة عن الجسم مستقلة عن المادة الا لغواً اختلقه فلاسفة علم النفس

ليس له قيمة علمية ، وعلى الاجمال فكل شيء اما مادة أو مظهر من مظاهر المادة ، والمادة لاتحد ولا تفنى ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهذه المادة لم يخلقها الله ولا الانسان بل هى قديمة أزلية ابدية لا تتغير ولا تفنى وليس فى هذا العالم شيء يعتريه الفناء ولا ذرة واحدة وانما تتغير الاشكال .

خفف الوطء ما اظن أديم الـ
أرض الا من هذه الاجساد

وقبيح بنا وان قدم العهـ
ـد هوان الآباء والاجداد

قال شكسبير :

يعترى قيصر المعظم جمام   وتحيل الوجود ايدى الفناء
فاذا قيصر المعظم طين   سد فى ثلمة ممر الهواء

وقد ذهب الاستاذ « كارل فخت » الى أبعد من هذا فى تعريفه للفكر ، فقال ان المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التى يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول .

والنفس والحياة والفكر والوجدان كلها ثمرة المادة ، وكلها كائنة فى كل ذرة من المادة وانما تظهر اذا تركبت الذرات ، وكلما كانت مادة العضو اكثر تركبا كانت وظائفه اكثر تعقدا ، والمخ من أعجب الاعضاء وأدقها واجملها

تركيبا ، ووظيفته الفكر فليست المادة كتلة صلبة جامدة
خالية من الحركة الذاتية ، عقيمة لا تنتج مظاهر الحياة
والعقل والشعور الا بمعونة قوة أخرى ، وليست المادة
دائما محسوسة منظورة ، وانما المادة تحتوى ملايين لا تحصى
من الجزيئات على حالة عادية غير منتظمة ولا منظورة
وبتحرك هذه الجزئيات حركات متناسقة تتخذ المادة اشكالا
متنوعة وينشأ عنها ظواهر متعددة من خشونة ونعومة
ولون وحركة وامتداد وحجم الى ما عدا ذلك مما ليس
الا نتيجة عمل المادة ، والحياة والفكر مظهران كذلك
من تلك المظاهر . ولسنا ندعى انهما أنفسهما مادة وانما هما
كما قال بخنر فى كتابه « القول الفصل فى المادية » « ليسا
مادة وانما هما مافعلت المادة » وهذه المادة المركبة من
ذرات وقتية — ليست موزعة على الفضاء بنسبة واحدة بل
هى مجتمعة في بعض المواضع دون الاخرى كتلا كتلا من
سديم وسحاب وشموس ونجوم واجرام أخرى سماوية ،
وكما تختلف المادة من حيث توزعها على الفضاء كذلك
تختلف من حيث الحركة وتركب الجزيئات فبعض أجزاء
المادة فى منتهى النشاط وسرعة الحركة وبعضها بطىء خامد،
وقد تقلبت المادة فى أطوار متعددة جارية على سنن النشوء

والارتقاء حتى تشكلت بشكل أرضنا ، ذلك الشكل المكثف الجامد المستقل ، وكذلك مر الانسان فى أدوار النشوء حتى وصل مخه وهو عضو التفكير الى درجة عالية من الرقى ، وعند ذلك نشأت المدنية الحديثة .

أما الموت فقد رأى فيه بخنر ما يأتى قال « ذهب كثير من الفلاسفة الى أن الموت هو السبب الاساسى الذى حمل على الفلسفة واذا صح هذا كانت الفلسفة التجريبية (القائلة بان التجربة أساس العلم بالاشياء) فى عهدنا هذا قد حلت أكبر لغز فى الفلسفة ، فقد أبانت منطقيا وتجريبيا أن لاموت ، وأن الموت وهو أكبر سر غامض ليس الا تغيرا مطردا من حال الى حال ، وأن كل شىء فى هذا العالم لايفنى ولا يزول ، من أصغر دويبة الى أكبر جرم سماوى ، من حبة رمل أو قطرة ماء الى أعظم موجود فى الخليقة أعنى الانسان وأفكاره . نعم يتغير شكل الموجود أما الموجود نفسه فدائم لايلحقه الفناء ، فاذا نحن متنا فليس معنى ذلك اننا فقدنا وانما فقدنا شعورنا الشخصى أو شكلنا العارض الذى لبسته حقيقتنا الابدية وقتا قصيرا ، وسنبقى ابداً فى العالم وفى جنسنا وفى ذريتنا وأعمالنا وأفكارنا وعلى الجملة فسنبقى فيما قد مناه من عمل — مادى أو نفسى

وما خلفناه من أثر لبنى جنسنا أو للعالم أجمع فى الايام القصيرة التى عاشتها أشخاصنا » والمادية مع كونها من المذاهب الواحدية الا أنها بالضرورة مذهب الحادى لانه ينكر وجود شىء غير المادة ، فلا يعترف بآلهة ولا بأرواح ولا بملائكة ولا بشياطين ، قال أحد الكتاب الماديين « أن الطبيعة تقوم بشؤونها ولا شىء فوق الطبيعة ، وليست الحوادث التى يسميها بعضهم خوارق للعادة ووراء الطبيعة الاهراء من القول وخطأ فى الملاحظة منشؤه اختلاط فى العقل واضلال رجال الدين »

٤ وليس مثل هذه الرسالة المؤلفة للجمهور يسمح لنا بذكر تفاصيل عن مذهب المادة ولكنا سنذكر لها تاريخا اجماليا يبين أصلها وما وصلت اليه من رقى قال «لنج» فى كتابه « تاريخ المادية » إنها قديمة قدم الفلسفة وليست أقدم منها ، فقديما حاول الناس أن يدركوا العالم كانه شىء واحد ، وأن يدركوا خطأ الحواس الشائع ويتغلبوا عليه ، وترجع المادية لأول عهد الناس بالفكر والنظر ، فتراها فى البوذية عندقدماء الهنود، وفى النظم الدينية عندالصينيين، وعند أعظم الامم القديمة مدنية أعنى المصريين ، ونجدها فى شكل منظم عند اليونان الاولين فقد كان فلاسفتهم

الاقدمون ماديين ، بحثوا فى أصل المادة التى منها تتكون الاشياء ، وقد رقى مذهب المادية علماء الجوهر الفرد أعنى ليوسببس وصاحبه ديمقريطس « ٤٢٠ ق م » الذى يعد رأس الماديين ، وقد وضع ديمقريطس هذا — وهو أحد علماء الطبيعة الايونيين — نظرية الجوهر الفرد فقرر أن المادة تتركب من جزيئات صغيرة لانهاية لها « جواهر فردة » تتجمع وتتفرق فتتكون منها الاجسام ، وتلك الجزيئات قد منحت الحركة ، ولم تستمد حركتها من أية قوة أخرى أو أصل آخر وانما ذلك من طبيعتها

وجاء بعد ابيقور « ٣٤٠ ق م » فرقى نظرية ديمقريطس وقرر أن المادة قوام العالم وان النفس والذكر والعقل والشعور أعراض للمادة . وربما عد من اتباع أبيقور ليوكريتوس كاروس « ٩٩ ق م » المؤلف الرومانى الشهير والفيلسوف الشاعر وقد أوضح آراء فى كتاب له منظوم لقبه « طبيعة الاشياء » . وهذا الشعر المشهور كما قال « لنج » هو الذى جعل لعقيدة أبيقور قوة فى العصور الحديثة

وفى القرون الوسطى كان للمعتقدات الدينية والتصديق الأعمى الغلبة والسلطة على عقل الانسان . فخضعت المادية للنصرانية الاثنينية أعنى القائلة بالروح والمادة ، ولم يخل

ذلك العصر من اصوات ضعيفة قالت بالمادية مثل جسندى الفرنسى وجيوردانو برونو الايطالى ، ولكن لم تلبث أصواتهم أن اخمدت ، واحرق الاخير برومية فى ١٧فبراير سنة ١٦٠٠ — اما فى العصور الحديثة فقد انتعشت المادية فى انجلترا بفضل توماس هوبز (١٥٨٨ـ١٦٧٩) وقد ذهب الى أن كل مظاهر العالم الحقيقية نتيجة الحركة ، وأن ليس هنالك أرواح غير مجسدة، وفسر الروح بأنها أجسام طبيعية رقيت حتى لم تستطع حواسنا ادراكها

وقد انتقل مذهب المادية من انجلترا الى فرنسا فظهر لامترى «١٧٠٩ — ١٧٥١» وبارون هلبك فأوضحا مذهب المادية، وجاء كابانى أيام الثورة الفرنسية (١٧٥٧ — ١٨٠٨) فأيد مبادىء الماديين

وفى ألمانيا كان سيل مذهب المثال الذى وضع نظامه (فخته وشيلنج وهجل) طاغيا على المادية ، ولكن انتعاش العلوم الطبيعية جدد للمادية حياتها ، وجاء مولشت فبحث فى روح العلوم الوضعية (اليقينية) حتى صار فى القرن الماضى ناشر مذهب مادى قوى جديد، وقرر فى أحد كتبه مبدأ «أن لاقوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة» وتبعه

كارل فجت الطبيعى الشهير فأظهر فى كتاب له[1] ميله الى المادية ، وجاء لدويج بخنر فتأثر بتعاليم مولشت حتى صار اللسان القوى المبين لمذهب الماديين العصريين ، ولقب كتابه (القوة والمادة) « بالكتاب المقدس للمادية »

الروحانية

٥ على العكس من مذهب المادية — القائل بأن المادة أصل كل الاشياء من حياة وفكر وشعور ومظاهر عقلية — مذهب الروحانية. وقد أخطأ بعض الناس فهم « الروحانية » فلقبوها « مذهب المثال » Idealism ، مع أن مذهب المثال هذا انما يقابله « مذهب الواقع » لا « مذهب الماديين » كما ستعلم ذلك عند الكلام على « نظرية المعرفة » وقد نشأ من عدم تحديد معانى الكلمات أن بعض الناس فهموا خطأ — كذلك — أن المادية تدعو الى الانانية (الأثرة) والأميال السافلة حتى استعملوا كلمة « الماديين » للذم والتعيير . لهذا كان من المستحسن أن نميز بين المادية والروحانية تمييزاً صحيحاً . فمذهب المادية يرى أن أساس كل الإشياء هو المادة وهى فى أول أمرها تكون مادة

(١) اسم هذا الكتاب هو Charcoal - burner's Creed and Science

لا حراك بها ولا شعور لها، ثم ترتقى حتى تصل الى مادة حية شاعرة ، وتصدر عنها الاعمال النفسية فى أرقى مظاهرها .

وأما مذهب الروحانية فيرى أن أساس هذا الوجود الذى يعمل وراء هذه المظاهر انما هى الروح التى لا مادة لها

ولسنا نحاول هنا شرح المذاهب المختلفة للروحانية ، وانما يكفينا أن نقول ان هذ المذهب يرى أن « الفكر » وان كان له ارتباط بالمخ ليس نتيجة المخ وبعبارة فلسفية نقول ان العلاقة بين المخ والفكر ليست علاقة علة بمعلول . نعم ان المخ آلة لا بد منها للتفكير ولكنها ليست نتيجة للتفكير اذ ليس يمكن أن يكون الفكر الانسانى الذى يشعر بشخصيته وبحرية ارادته نتيجة لمادة جامدة لا تحس ولا تشعر مهما كانت حالتها من رقى تركيبها وحسن نظامها

المادة لا يمكن أن تفكر ولا أن تشعر لأن ما يفكر فيه أو يشعر به (وهو المادة) لا يمكن أن يكون هو بعينه المفكر الشاعر فى الوقت نفسه ، وفى ذلك يقول شاعر فرنسى ما معناه : « لا أظن أن الفكر وهو ذلك الشعاع الساطع ينبعث من مادة كثيفة مظلمة »

فماهية الاشياء على هذا المذهب ليست قوة مادية بل

روحاً تشعر بنفسها وتحس بشخصيتها . ذلك لانه ليس فى استطاعتنا أن ندرك حقائق الاشياء بحواسنا بل بعقلنا المجرد، فكان لا بد اذن أن تكون حقيقة الاشياء المدركة بالعقل المجرد شيئاً روحياً مجرداً

٦ وقد ظهر المذهب الروحانى بعد المذهب المادى ، فالعقل البشرى الشغوف بالغيب وبالاسرار وبما لا تعرف له علة وبعبارة أخرى بكل ما لا يصل اليه علمنا لا يقنع طويلا بمذهب المادية الذى يجرد الحياة من الاسرار. وهذا هو السر فى أن الانسان من حين لآخر يعدل عن العلم الى الدين بعد ما عدل عن الدين الى العلم .

وقد كانت المادة والروحانية فى جميع أدوار تاريخ الفكر الانسانى ولا تزالان الى اليوم فى حرب عوان، كل يطلب الغلبة والسيادة فى عالم الفلسفة. فقد أوضح افلاطون نظرية الروحانية وقرر أن «المثل»[1] لها وجود حقيقى وأنها هى النماذج التى تحتذيها الظواهر . وفى العصور الحديثة جاء رينه ديكارت فأحيا عقيدة الروحانية ثم جاء ليبنيتز (١٦٤٦—١٧١٦) واليه يرجع الفضل فى ضبطها واحكامها، ومذهبه أن أساس الموجودات شىء واحد وهو

(١) انظر ذيل صفحة ٥٧

الروح وهى تنقسم الى نقط روحية لاعداد لها وكل نقطة من هذه النقط تسمى « الذرة الروحية » [1] وهذه الذرة يخلقها الله . وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرات، وعدم قبول الجواهر الفردة للانقسام ليس الا فى الظاهر فقط أما فى الواقع فهى قابلة للانقسام، اذ انها مركبة من ذرات روحية . وكل جسم مركب من جواهر فردة، فهو اذن مركب من ذرات روحية، وما يرى للجسم من الامتداد فليس حقيقياً بل هو ناشىء من اجتماع ذرات روحيـة بعضها مع بعض .

وحقائق الاشياء ليست المادة بل القوة أو الذرات الروحية ، وقد خلق الله تلك الذرات وجعلها مراكز للقوة ومنحها قوة ادراك ، وفاوت فيما بينها فى ذلك . فالذرة الروحية قوة روحية تتجلى فيما تتخذه من الاشكال المتغيرة على الدوام، وهذه الذرات « هى مرآة العالم الحية الباقية » وفيها قوة تحاول التحول من حالة اللاشعور الى حالة الشعور ،

---

(١) ترجمنا كلمة Monad التى استعملها ليبنيتز (بالذرة الروحية) ويريد بها جزيئاً صغيراً من الروح لا امتداد له قد منح الحياة ويقابله الجوهر الفرد وهو جزىء صغير من الجسم وعلى رأى ليبنتز الجوهر الفرد مركب من ذرات روحية وقد توسعنا فى شرح مذهب ليبنتز لان ما ذكره المؤلف مركز تركزا يجعله صعب الفهم (المعرب)

والشعور هو تيار من الافكار والاحساسات يتدفق من حقيقة الذرة الروحية ، والمادة هى مجموعة من الذرات الروحيـة ، وقد تكون تلك الذرات فى حالة اللاشعور فتكون منها المادة الميتة

والجسم هو امتداد المادية materiality ولـكن ما حقيقية تلك المادية؟ قال ليبينتز أنها القوة (أوالذرة) وهى ليست بمادة وليست قابلة للامتداد ولا للتجزئة ولا للفناء. وللذرات الروحية تدرج فى الرقى يصل الى حد الـكمال ، وما بلغ منها منتهى الـكمال يحكم ما لم يبلغ ، وما لم يبلغ حد الكمال يطيع ، والمادة الميتة هى مجموعة ذرات روحية لم تبلغ الـكمال وليس معها ذرات حاكمة ، وليست الذرات الروحية فى أى حال من أحوالها فاقدة الحياة ، لأن كل ذرة لها جسم وروح، فالروح ماهية المادة والجسم مظهرها المحسوس — ولئن كان ليبنيتز قد رأى للمادة وجوداً ما فان «بركلى» قد ذهب الى أبعد منه وتغالى فى الروحانية، وهو جورج بركلى قسيس «كلوين»*(١٦٨٥ — ١٧٥٣ م) الملقب « بمحب الانسانية الـكبير والفيلسوف الصغير » لقبـه به مؤلف جرمانى حديث ، وربما كان غير عادل فى تلقيبه بذلك — وقد ذهب بركلى الى أن المادة لاوجود لها

فى الخارج ، وانما يخيل الينا أنها موجودة . ولا وجود الا للروح والعقل، ولا فرق بين مانسميه شيئاً حقيقياً وبعبارة أخرى (ماندعى وجوده فى الخارج) وبين آرائنا فى الشيء أو تصورنا له ، بل العقل يتصور شيئاً وفى الوقت عينه ينتج الشيء نفسه ، وليس هنالك شيء خارج العقل ، فترى من هذا أن ليبينتز سلم بوجود الاشياء الخارجية وأما بركلى فأنكر وجود شيء وراء العقل ، فالشمس والقمر والاشجار عند بركلى لاوجود لها اذا لم يوجد عقل يدركها ، والعقل عنده (وقد رأى بركلى تعدد العقول) لا يدرك الاشياء بنفسه ولا بقوة ارادته ولكنه يستمد الادراك من الله القادر ، فهو سبحانه يطبع الصور فى عقولنا ونحن نسمى تلك الصور عادة أشياء حقيقية

وقد قال فى كتابه المسمى « السلسلة » الذى ابتدأه بالكلام على منافع « ماء القطران » وختمه بالكلام على « الموجود المطلق » : (ليست الآراء والافكار خيالات باطلة يتخيلها العقل بل هى الموجودات الحقيقية التى لا تقبل التغير ، ولذلك كان وجودها أكثر تحققاً من الاشياء الخارجية الزائلة التى تقع عليها حواسنا والتى لا ثبات لها ولا يمكن أن تكون موضوعاً للعلوم فضلا عن أن يدركها العقل)

وفى العصور الحديثة جاء « هرمان لوتز » فشرح فى كتابه « العالم الصغير » مذهب الروحانيين وكذلك « شوبنهور » الذى ذهب الى أن الارادة هى حقيقة الاشياء ونخنر الذى يقول « ان كل شىء فى الوجود حى » يعدان من الروحانيين

الواحدية والاثنينية

٧ ذهب بعض الفلاسفة الى أن أساس الاشياء شىء واحد اما المادة واما الروح وآخرون الى أن العالم والانسان يتركبان من أصلين قائمين جنباً لجنب على وفاق ، وهما المادة والروح ، فالأولون وهم القائلون بوجود أساس واحد اليه ترجع كل الظواهر المختلفة يسمون « الواحديين » ومذهبهم يسمى « الواحدية » قال ولف : « الواحديون هم الفلاسفة الذين يقولون بعنصر واحد » وهم اما ماديون اذا رأوا أن المادة هى الاصل أو روحانيون اذا قالوا بأن الروح هى أساس الاشياء

وقد رأى « ادورد هارتمان » فى كتابه « فلسفة اللاشاعر » ان الميل الى «الواحدية» كان سائداً بين النظم

الاساسية التى وضعها الأولون دينيــة كانت أو فلسفية ، وأما « الاثنينيــة » اعنى المذهب القــائل بوجود اساسين متعاونين: المادة والروح ، فليس مذهبا يسود بين السذج فحسب ، بل قد دافع عنه أيضاً فلاسفة عظام من طلوع فجر المدنية الى اليوم ، قال ولف فى تعريفهم « الاثنينيون هم الذين يقولون بوجود عنصرين مادى وروحى »

وقد كان أنكساغوراس وارسطاليس والرواقيون اثنينيين،وفى العصور الحديثة جاء «ديكارت» فأيد مذهب الاثنينيــة ثم عـدله جهلنكس الى مذهب « الاتفاقيين » Occasionalists[1] وربما عد من « الاثنينيين » أيضاً هربارت ولوتز ونخته

رأى انكساغوراس (٤٥٠ ق م) وجود مبدأ عاقل هو سبب الحركة ، وهو غير العنصر المادى الذى لا يتحرك ولا يشعر،والعنصر المادى لاشعور له وليس فى قدرته أن يسبب حركة بنفسه ، وانمـا العنصر الروحى الذى وهب الشعور والتـأثير والقوة والعقل هو الذى ينتج الحركة

---

(١) مذهب الاتفاقية Occasionalism مذهب يقول ان العقل والبدن لايؤثر أحدهما فى الاخر وعند عروض تغير فى احدهما اتفاقا يغير الله فى الاخر (المعرب)

والحياة فى هذا العالم

ويعد الفيلسوفان العظيمان القديمان أفلاطون وتلميذه الشهير ارسطو «اثنينيين» فقد سلم أفلاطون بوجود المبدأ المثالى والمبدأ المادى ، وبعبارة أخرى سلم بوجود عالم الحواس وعالم المثال ، ويرى أن عالم المثال نموذج يحتذيه عالم الحواس . وكذلك ارسطو قال بوجود مبدأين المادة (الهيولى) — وهى الشىء القابل — والصورة وهى التى منحت القوة،فهو أيضاً اثنينى،ولكن ماذهب اليه من أن الصورة أو المثال — والمادة لاينفصل أحدهما عن الآخر وأن لكل موجود صورة وهيولى ، مثالا ومادة ، روحا وجسما ، يجعل مذهبه أقرب الى « الواحدية » أوعلى الأقل يجعل الاثنينية مصبوغة بصبغة الواحدية .

وقد ظلت الاثنينية ذات السلطان فى القرون الوسطى لاتفاقها مع التعاليم الدينيــة . ويعد « ديكارت » مؤسس الاثنينية فى العصور الحديثة،وقد فرق بين مايقبل الامتداد وهو المادة وبين العقل ، وقال انهما عنصران مختلفان يضاد كل منهمــا الآخر على خط مستقيم وكل منهمــا يطارد الآخر .

والعقل أو الروح ليس مادياً ولا امتداد له وهو فاعل

حر، أما الجسم أو المادة فلها امتداد ولا روح لها، والانسان مكون من الجسم والروح معا ، وحركات الجسم تنشأ عن النفس، والنفس مستقلة عن البدن وغير قابلة للفناء . وتلتقى النفس مع البدن فى الغـدة الصنوبرية (القلب) — وجاء سبينوزا فرأى أن الامتداد والفكر انمـا هما صفتان مختلفتان لعنصر واحد يتكون منه كل شيء الطبيعة أو الله وليسا ناشئين من عنصرين مختلفين لان العنصرين المختلفين المتضادين تمام التضاد لا يمكن أن يتحدا ولهذا يعد سبينوزا « واحدياً »

وفى العصور الحديثـة يمكن أن يعد لوتز وفخته اثنينيين

« والاثنينية العقيدة التى تعتنقهـا العقول الساذجة وهى أساس الاديان كلها »

قال هيكلى فى رسالتـه « الواحـدية » كل الاديان الغابرة والمذاهب الفلسفية القديمة «اثنينية» تعتقد أن الله والعالم ، الخالق والمخلوق، الروح والمادة ، عنصران منفصلان بعضهما عن بعض تمام الانفصال . وانا نجد الاثنينية فى أنقى الاديان ولا سيما فى ديانات التوحيد الثلاث التى جاء بها أنبياء ثلاثة ظهروا شرقى البحر الابيض وذاع صيتهم وهم

قضية العالم الدينية

٨ مما يتصل بالبحث فى حقيقة الموجود مسألة شغلت عقول الناس منذ أن ابتدأوا يفكرون ، وهى : كيف وجد العالم ؟ وبعبارة أخرى كيف برز هذا العالم الى الوجود ، فقديماً تنبه الانسان — حتى الانسان العادي — الى أن هناك وحدة تشترك فيها أشياء العالم المتنوعة أى أن العالم كله كالشيء الواحد يتصل بعضه ببعض سواء فى ذلك مايدرك بالعين ومالايدرك، وسرعان ما أدرك أن ظواهر العالم تحصل بنظام دقيق، وانها خاضعة لقوانين لاتنتهك ، فى كل أطوار الأنسان من أيام طفولته الى عصر تقدمه يرى أن كل شيء حوله من أرض تقله وسماء تظله تسير على قانون ونظام يستخرجان منه العجب ، فكان فيما شاهده من نظام فى الطبيعة وترتيب فى الظواهر الطبيعية المتنوعة ما أثر فيه وحمله على أن يسأل عم نشأ نظام هذا العالم وكيف وجد ؟ ظن فلاسفة اليونان الاولون أنهم حلوا المسئلة بقولهم بوجود أصل واحد للاشياء مثل الماء (كما قال طاليس) أو الجو (انكسمندر) أو الهواء (انكسمينيس) أو النار

(هرقليطس) وأن كل موجود على قولهم يستمد وجوده من ذلك الأصل واليه المآب، ولكن كيف نشأ هذا النظام ووجدت الاشياء من ذلك العماء ؟ الى الآن لم يجب عن هذا السؤال . وقد أفحم الطفل الذكى ابيقور استاذه — وقد كان يقرر له أن العالم نشأ من « العماء » — بسؤاله « ومن أين نشأ هذا العماء ؟ » — أن العنصر أو العناصر التى يظن أنه ينبثق منها كل موجود وينظم هذا النظام التام لابد أن يكون لها علة — وقد ذهب بعض الفلاسفة مثل ديمقريطس وهيرقليطس الى أن وحدة Unity العالم ليست الا مظهراً فقط والحقيقة أن هناك عدداً لانهاية له من جزيئات لاعدادلها (جواهر فردة) تتحرك فى الفراغ لالغرض ولا مقصد، فتجتمع تارة وتتفرق أخرى وليس تجمعها أو تفرقها يرجع الى سبب علوى، ولكن تبعاً للحركة الوقتية التى هى جزء من حقيقتها . وليس عندهم مايسمى بعلة العلل ، وانما تتحرك الجواهر الفردة فى فضاء لانهاية له وفى زمن لانهاية له فيتجمع منها مايمكن أن يتجمع، ويحصل ذلك ويتكرر ، ويسمى هذا المذهب مذهب الجوهر الفرد

---

٩ مثل هذا الشرح لا يقنع الانسان طويلا فان عادته التى لاتنفك تسأل عن العلة الاخيرة لهذه الظواهر، وما فيه من

مشاعر غامضة قوية أهمها شعوره بضرورة اعتماده على قوة، وحاجته الى واق يقيه، حملته على الاعتقاد بوجود قوة علوية لاتدركها الابصار، قوة شاعرة بأن لها ارادة « ولها بعض الشبه البعيد بعقل الانسان » وهذه القوة هى سبب نظام العالم، هى سر كل شىء. اياها يستعين الانسان على مايطلب من حماية وسعادة. وذلك العماء [1] الذى ذكرناه لا بد أن يكون له مدبر يضبط اموره وهذا المدبر هو ما يعلل به نظام العالم، وهو مفتاح يحل به اعظم الالغاز المعقدة ويشرح لنا الغرض من هذا العالم، قال مكس مولر « أن النظر فى الظواهر الطبيعية قاد الانسان الى ادراك خالق وراء هذه الظواهر »

تلك القوة العلوية هى الله. ومن قبل أن طلعت شمس المدنية والناس يقرون بوجوده، وكل جنس وجيل تقريباً

---

(١) ترجمنا كلمة (Chaos) بالعماء، ونعنى بها المادة التى على حالة اختلال وعدم انتظام وذلك قبل أن تخلق والخلق على هذا القول اخراج المادة من حالة التشويش وعدم الانتظام الى حالة الانتظام. واستعملنا كلمة العماء بهذا المعنى أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل — أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والارض قال « فى عماء تحته هواء وفوقه هواء » (المعرب)

سماه باسم خاص مثل يهوه وجوبتر والسيد المالك وما لا يحد وما لا يعرف والارادة المطلقة ومسخر العالم الخ

— وان السماء لدليل على عظمته —

وكما قال تنيسن

" كلا ، ليس الشمس والقمر والنجوم والسهل والحزن الا منظراً من مناظر رب العالمين

والاعتقاد بالله متأصل فى نفوس الناس، ينبع حيناً بعد آخر حتى من اجدب النفوس واقحلها ، وكانت فكرة الاعتقاد بالله فكرة ساذجة فى أول أمرها ، درجت بين ما كان عند الانسان الأول من أثرة وحب نفس ثم ترقت بمرور الازمان وكانت مجالا لنظريات مختلفة وآراء متباينة، نشأت فكرة سخيفة فى عصر الهمجية إعتنقها المتوحشون الذين صاغوا معبودهم بأيديهم وترقت الى ان وصلت الى شكل اعتنقه امثال هجل ورنان ومكس مولر وغيرهم

والمذهب القائل بوجود خالق لهـذا العالم مدبر له لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار يسمى بمذهب المؤلهة

(القائلين بآله) وهذا المذهب يرى وجود إله أو آلهة علويين فوق الطبيعة وفوق العالم ، وهذا الاعتقاد أساس كل المعتقدات الدينية من عقيدة المتبربرين الذين لم

يأخذوا من المدنيــة بحظ وافر الى العقيدة الاثيرية التى
وضعها شلر ما كر

ومذهب المؤلهة اما أن يقول بألهين أو آلهــة عدة ،
وهذا هو أساس ديانات كثيرة شرقيــة قديمة وحديثة —
ويسمى مذهب الشرك واما أن يقول بأله واحد ويسمى
مذهب التوحيد ، وهــذا اساس الديانات الثلاث العظمى
اليهودية والنصرانية والاسلام ، ويقول مذهب المؤلهة انه
لما كان العقل وحده لا يستطيع ان يدرك الاعتقاد بالله
حق الادراك ، جاء الوحى لتفهيم الناس هـذه الحقيقة —
ومذهب المؤلهة مذهب مشبه (يشبه الله بالانسان) فينسب
الى الله فكراً ورأياً وصفات وأميالا وصورة كما للانسان
ذلك ، الا أنه يقر بأن ماله من ذلك أكمل مما للانسان .

وهناك مذهب يخالف مذهب المؤلهة فيقول ايضاً
بوجود اله علوى قوى عالم ، الا أنه لايقول بوحى ويسمى
هذا المذهب مذهب العقليين وهذا المذهب يؤيد القول
بأله ويرد على الملحدين المنكرين له ، ولكنه ينكر أن الله
هو الفعال على الدوام فى حكم العالم وفى تدبيره وفى
اسعاد الناس واشقائهم ، ويرى أن العقل وحده لا بمعونة
وحى وخوارق للعادة يستطيع أن يصل الى معرفة الله

أو الى علة العلل الذى نظم العماء ، وان هذه القوة (الله) ليست فى حاجة الى نظام دينى خاص ، ولا الى شكل من اشكال الصلاة ، ولا الى شعائر عبادة ، وتغالى اصحاب هذا المذهب فى آرائهم وتعمقوا فى خيالاتهم ، حتى ذهبوا الى أن كل العقائد والاديان ستفقد خواصها المميزة لها بعد أمد مديد ، وان النصرانية واليهودية والاسلام ومذاهب الاشراك والتوحيد ليست الا امواجاً قصيرة الأمد سائرة الى الزوال فى بحر الالوهيـة المحيط ، وليست البوذية والزرادشتية والمانوية أشياء يعتد بها فى الافق الفسيح للمثل الإنسانية العليا ، والعقليون ينكرون ايضاً القول بان الله خلق العالم من لاشىء ، ويرون أن الله انما نظم حالة المادة المشوشة واخرجها من حالة العماء ، أما المادة نفسها فقديمة وكثيراً مايسمى العقليون هذا « ملحدين » وقد سماهم بوشوت « الملحدين المتنكرين »

١٠ ويتفق مذهب المؤلهة ومذهب العقليين فى القول بانه علوى فوق العالم يحكم العالم من عل ، كانه منفصل عنه ويذهب المؤلهون الى أبعد من ذلك ، فيتخيلون الله مستوياً على العرش ، بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم جزاء بما كانوا يعملون ، تهمه أعمال الانسان ، وتسره التضحية

وتسكن سورة غضبه الصلاة، ويرى أيضاً أن الله تعالى أعلى من أن تفهم عقولنا أعماله — وتضاد هذه العقائد القائلة بأن لله وجوداً مستقلا وأنه أعلى من مخلوقاته — عقيدة أخرى ترى مذهب الحلول أى أن الله فى هذا العالم وأنه كل شىء فى كل شىء وان الله والقوة الداخلية الفاعلة فى هذا العالم مترادفان. وانه لمن الصعب تحديد مذهب الحلول حتى قال جوتيه: «لم أر الى الآن من يفهم ماتدل عليه كلمة الحلول فهماً صحيحاً» وتدل الكلمة على أن هذا المذهب يرى أن الله هو كل شىء وأن كل شىء هو الله. وليس الله والعالم منفصلا بعضهما عن بعض بل شيئاً واحداً من عنصر واحد، ولا يرى أن الله قائم بذاته منفصل عن العالم كما يرى مذهب المؤلهة - المشبهين — ومذهب العقليين بل ينزه الله عن كل أوصاف البشر، وينكر أن يكون الله مشخصاً قائماً بذاته، ويقول لافرق بين الله والعالم، وأن الله هو الخالق المدبر والعلة الفاعلة على الدوام، وهو روح فكرتها العالم، والعالم عندهم مظهر الله والطبيعة شعاره، ذلك لانه لو كان هنالك شىء غير الله لكان محدوداً ولما وجد فى كل مكان ولما كان قادراً على كل شىء — وعندهم أن الله حال فى كل ذرة من ذرات العالم، وفى كل حبة من

رمال الصحراء ، وفى كل نبتة من نبات الحقول ، وفى كل ورقة من أوراق الاشجار يلاعبها الهواء ، وفى كل دابة تدب على الغبراء ، قال شلى يخاطب الله :

« ان أصغر ورقة من أوراق الاشجار التى يلاعبها »
« النسيم ليست الا بضعة منك (جزءاً من أجزائك) كلا »
« ولا احقر دودة تسكن القبور وتسمن من لحوم الموتى»
« أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية »

وقال : « ان هذه الروح التى توجد فى كل مكان بها يحيى كل موجود وهى هو »

وقد حدد هنريك هينى فى كتابه المتع « الدين والفلسفة فى جرمانيا » مذهب الحلول الذى قال عنه أنه (دين ألمانيا المختفى فى نفوسهم) فقال ان الله هو العالم وقد تجلى الله فى النبات بنوع حياة — حياة مغناطيسية لا تنبهية — وتجلى فى الحيوان بحياة تشبه حياة النائم ، فهو يحس نوع احساس بأن له وجوداً ، ثم تجلى أعظم تجل فى الانسان فهو يشعر ويفكر ، ظهر الله فى الانسان بمظهر الشاعر بنفسه ولست أعنى فرداً من أفراد الانسان وانما أعنى النوع الانسانى كله ، فيحق لنا أن نقول « ان الله قد تجسد فى ذلك النوع الانسانى »

١١ واذا نحن حاولنا أن نذكر تاريخاً كاملا لقضية العالم الدينية فمعنى ذلك أننا نريد ذكر تاريخ الفلسفة كلها وليس فى وسعنا ذلك ولذلك سأقتصر على ذكر أسماء قليلة من هؤلاء الذين قالوا بالمذاهب الاربعة التى تقدم ذكرها وأعنى بها : مذهب الجوهر الفرد ، ومذهب المؤلهة ، ومذهب العقليين ، ومذهب الحلول

أسس مذهب الجوهر الفرد « ليوسيبس » وتلميذه ديمقريطس وجاء انكساغوراس فرأى أنه لا بد من قوة أو عقل مدبر هو السبب فى نظام العالم ، ومن أجل ذلك قال بوجود عنصر قد منح القوة والحياة والعقل والعمل والحرية ، وهو منبع نظام العالم وحياته وحركته ، وسمى هذه القوة نوس Nous (العقل) وهذا العقل هو الروح التى أخرجت من الهباء نظاماً ، وهو المحرك الاول للمادة ، ولكنه ليس الخالق لها ، فانها أزلية — ويخالف هذا المذهب مذهب المؤلهة فانه يرى أن الله خلق المادة من العدم . وهذه العقيدة هى أساس كل العقائد الدينية ، وقد اتبع مذهب المؤلهة أفلاطون و « أرسطو » و « ليبنتز » و « كانت » واعتقدوا أن الله هو العلة الاولى لهذا العالم — ومذهب العقليين يقول بوجود آله يشرف على الكائنات ويحكم العالم

ولـكن لا عن أرادة حرة ، بل يحكمها متبعاً قوانين لا تقبل التغير ، وقد ظهر هـذا المذهب أولا فى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، وكان تولاندوم . تندال وشافتسيرى أشهر المدافعين غنه ، أما مذهب الحلول فقد كان يدعو اليه ريك فيدا Rig Veda كتاب الهنود المقدس وقدماء فلاسفة اليونان الايليون كان القديس بولس نفسه يدعو الى الحلول لما قال : « فى الله نحيا وفيه نتحرك وفيه نكون » وكان « زينوفانيس » يعلم ان ليس الا الـه واحد وانه هو والعالم شيء واحد

ونحو آخر القرن السادس عشر قام «جيوردانو برونو » ولم يعبـأ بتهديدات محكمة التفتيش ورفع صوته بتأييد الحلول والطعن على مذهب المؤلهة الذى يشبه الله بالانسان، وعنده ان الله الذى لا يحده حد والعالم شيء واحد ، وان هؤلاء الذين يتخيلون ان الله موجود بجانب الموجودات الاخرى انما يجعلونه محدوداً . وان ليس الله خالق العالم ولا المحرك الاول له بل هو روح العالم — وجاء « سبينوزا » الامستردامى (١٦٣٢—١٦٧٧) ونظم مذهب الحلول ولذلك يعد أبا الحلول الحديث، وأصبحت كلمتا الاسبينوزية ومذهب الحلول مترادفتين، ويمكن تلخيص مذهب سبينوزا فيما يأتى :

إن فى العالم جوهراً واحداً وهو الله ، وهو مطلق لا يحد وكل الجواهر الاخرى المحدودة منبعثة منه ومظروفة فيه، وليس لها الا وجود زائل سائر الى الفنـاء ، ولله صفتان يظهر بهما لنا نفسـه : الامتداد والفكر ، فبالامتداد المتنوع تتكون الاجسام ، وبالفكر المتنوع تتكون العقول وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهما « المكوكات الدائمة الحركة فى نول الزمن العاصف »

ولمـا أعلن سبينوزا حكيم « امستردام » الأوحد عقيدته هذه ثار عليه أنصار الدين واتهموه بالالحاد وما كان أبعده عن الألحاد ، فقـد كان مملوءاً بحب الله حباً جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الالوهيـة حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله ، وبالرغم مما وجه الى سبينوزا من الضربات القاسية كان له تأثير عظيم فى أكبر العقول فى أوروبا فشلر وجوتيـه ولسنج وهردر وشلر ماكر وهينى وشلى كانوا حلوليين وان شئت فقل سبينوزيين

وقد أوضح جوتيه عقيدته فى الحلول فى قوله :

« كلا . ليس يرضى الله أن يهيمن على العالم من فوق فحسب ، بل يود أن يكون فى باطن الكائنات وأن يرى

الطبيعة متجلية فيه ويرى نفسه متجلياً فى الطبيعة ، فما يخالقه الله والله وحياته وقوته شيء واحد[١] »

---

(١) واذا نحن قارنا بين مذاهب المسلمين وما حكاه عن هذه المذاهب وجدنا المسلمين يغلب عليهم القول بمذهب المؤلهة فهم يقولون باله ويصفونه بأوصاف الانسان من سمع وبصر واستواء على العرش ونحو ذلك وان كانوا يقولون بالفرق بين اتصاف الله بهذه الصفات واتصاف الانسان بها والمعتزلة تعاليم تجعل بينهم وبين العقليين بعض الشبه فقد قالوا : يجب على الله فعل الاصلح وتجنب الفساد ، ونفوا تشبيه الله بالانسان وقالوا ان الانسان يخلق أفعال نفسه ولكنهم لم يتفقوا مع العقليين فى نفى الوحى . وقد ظهر مذهب الحلول بين المسلمين وقالت به طائفة من طوائف الصوفية ، من أوائلهم أبو يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١ ﻫ) وأشهر منه فى القول بالحلول الحلاج تلميذ الجنيد قتل سنة ٣٠٩ ﻫ وله كلام وشعر يشبه شعر شلي وجوتيه وكلام سبينوزا فى الحلول فمن قوله : « ما فى الجبة الا الله » و « أنا الحق » ومن شعره

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهراً فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

ومن أشهر شعره

انا من اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتنى ابصرته واذا ابصرته ابصرتنا

وللصوفية كلام ومذاهب فى الحلول أو وحدة الوجود يطول شرحها (المعرب)

الفصل الثانى عشر

مسائل علم الاخلاق

١ من بين المسائل الاخلاقية التي اجتهد فلاسفة كل عصر فى حلها وخصصوا أفكارهم للبحث فيها المسائل الآتية :

(١) أصل شعورنا الاخلاقى

(٢) الباعث الباطنى الذى يحملنا على اطاعة ما يمليه علينا شعورنا الاخلاقى ، والذى يشكل سلوكنا بشكل خاص

(٣) المقاصد أو الاغراض أو النتيجة الاخيرة التى نحاول أن نصل اليها بأعمالنا الاخلاقية

(٤) المقياس الذى به نقيس أعمالنا فنحكم عليها بأنها خير أو شر

٢ المسألة الاولى أصل الشعور الاخلاقى، أعنى كيف نعرف ان عملا من الاعمال أخلاقى وآخر غير اخلاقى ؟ كيف يدرك وجدان الانسان الخير والشر أو الحق والباطل ويميز بينهما ؟ ألسنا نرى العمل الذى يعده بعض الناس خيراً وحقاً وأخلاقياً فى عصر من العصور أو عند بعض الأمم قد يعد هو بنفسه فى عصر آخر أو عند أمة أخرى

شراً وباطلا وغير اخلاقى فما اصل ذلك ؟ انقسم الفلاسفة فى الاجابة عن هذا الى قسمين: ففريق يرى أن فى كل انسان قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل والخير والشر والاخلاقى وغير الاخلاقى، وقد تختلف هذه القوة اختلافا قليلاً باختلاف العصور والبيئات « الاوساط » ولكنها متأصلة فى كل انسان، فكل يحصل عنده نوع من الألهام يعرفه قيمة الاشياء خيرها وشرها، وهذا الألهام يحصل للانسان بمجرد النظر، ولهذا نشعر — ولو لم نعلم — بأن شيئا خير وشيئا شر ويسمى هذا المذهب « مذهب اللقانة »[1] وكان كارليل من اتباع هذا المذهب لقوله « أن الشعور بالواجب — وهو معنى ابدى — جزء من طبيعتنا ونقطة المركز فى نفوسنا الفانية . ومثل ذلك مثل الابدية الخالدة

---

(١) جاء فى لسان العرب « غلام لقن سريع الفهم ولقن الشىء والكلام فهمه والاسم اللقانة » فآثرنا اخذها ووضعها لكلمة (Intiution) كما فعل الفرنج فان هذه الكلمة عندهم كان معناها فى الاصل النظر الى الشىء ثم اخذوها واستعملوها فى المعنى الجديد وهو « القوة الباطنة التى تدرك حقيقة الشىء بمجرد النظر اليه من غير اعمال عقل فى نتائجه » فلنصطلح على تسمية هذه القوة (اللقانة) لا سيما انى بعد البحث الطويل لم اجد العرب المتقدمين استعملوا كلمة فى هذا المعنى (المعرب)

فانها معنى ابدى مظاهره الليل والنهار والنعيم والشقاء والموت والحياة ، وهى اشياء فانية » . وهذه القوة ليست نتيجة بيئة ولا زمان ولا تربية بل هى غريزية لامكتسبة ، وهى جزء من طبيعتنا منحناها لنميز بها الخير من الشر كما منحنا العين لنبصر بها والاذن لنسمع بها . وكان بطلر يعد الوجدان جزءاً أساسياً من طبيعتنا و يعرفه بأنه « قوة بها نستحسن العمل أو نستقبحه » فهو اذن من اتباع هذا المذهب . وممن ذهب هذا المذهب من الجرمان « فخته » « وكانت » وهو اكبرهم

وفريق آخر من الفلاسفة خالف الاولين ورأى أن معرفتنا بالخير والشر مثل معرفتنا بأى شىء آخر تعتمد على التجربة ، وتنمو بتقدم الزمان وترقى الفكر ، ويقول أصحابه أن الشعور الاخلاقى ليس غريزيا فى الانسان بل هو نتيجة التجربة ، وهى التى علمته الحكم على بعض الاعمال بأنه خير أو حق وعلى بعضها بأنه شر أو باطل ، ويسمى هذا المذهب مذهب التجربة ، وأشهر من ذلك تسميته باسم النشوء والارتقاء Evolution وقد أسس هذا المذهب على نظرية النشوء التى وضعها دارون و والاس ، القائلة بأن الاجسام الحية العالية « نشأت » وترقت من الاجسام الحيـة السافلة ، وأن عقل

الانسان « نشـأ » وترقى من أبسط نوع من الادراك،
فأخذ فلاسفة كثيرون نظرية دارون هـذه فى النشوء
وطبقوا عليها قانون الاخلاق وعلم الاخلاق ، وقد كان
« كارنرى » و «مل» و «بين» وخاصة « هربرت سبنسر »
من معلمى هـذا المذهب ، قال أهل هذا المذهب : كما أن
الجسم العضوى نتيجة الوراثة ونتيجة عملية انتخاب ورفض
دامت مدة عصور كذلك عقل الانسان تدرج فى الرقى من
أحط الاحوال، وليست القوة الاخلاقية التى نعرف بها الخير
والشر الا التجربة ، فمنها نستخرج الحكم على الاشياء بأنها
خير أو شر . واستمرار الأمة فى التجارب يفضى الى تعديل
الآراء فى الاخلاق من وقت لآخر ، ويرى هذا المذهب
أن ليس عند الانسان قوة أخلاقيـة خاصة ، ولسنا نحتاج
للاهتداء فى أعمالنا الا الى اعمال عقولنا ، وان أحكامنا على
الاعمال لتصدر بملاحظة الغـاية التى نقصدها من أعمالنا
والباعث عليها لا بملاحظة ملكة فينا أو قوة أخلاقيـة فى
نفوسنا ، وليس الشعور الاخلاقى الا نتيجـة من خير نتائج
«النشوء والارتقاء» وقد تدرج فى الرقى من تخيل المتوحشين
الى آراء المتمدنين المهذبين ، ولا يزال الى الآن يرقى
برقى الامم.

٣ المسألة الثانية من المسائل التى وجه اليها فلاسفة الاخلاق نظرهم وذهبوا فى الاجابة عنها مذاهب ، مسألة الغاية أو الغرض من أعمال الانسان الاخلاقية — ان الاعمال الاختيارية يعملها الانسان وامام نظره غاية من أجلها يعمل العمل . وذلك أن الانسان لما كان حيوانا ناطقا (مفكراً) قد منح قوة فكر ، بها يستطيع أن يدرك العلاقة بين الاعمال وما تؤدى اليه من النتائج ، لم يكن ملجأ الى العمل بمجرد الدوافع (كما هو الشأن فى الحيوان) وانما هو منقاد ومتأثر برغبة فى غاية يريد تحصيلها ، فالأعمال الاخلاقية أو السلوك الاخلاقى اذاً وسيلة يحاول بها الانسان أن يصل الى غاية ، فما هذه الغاية الاخيرة والخير النهائى الذى يشتاق الانسان للوصول اليه ويجد فى البحث عنه ؟ ذهب فلاسفة اليونان الاقدمون كسقراط وافلاطون الى أن كل انسان بطبيعته وبالضرورة انما يبحث وراء خيره ، فالخير الاخير وغاية الغايات هو السعادة أو اللذة وتسمى هذه النظرية نظرية السعادة ، وقد نشر هذه النظرية فلاسفة اليونان وظهرت فى تاريخ البحث الاخلاقى لابسة أثوابا مختلفة . ونظرية السعادة هذه تضاد نظرية اللقانة وتقول أن الانسان انما صار اخلاقياً بعقله وتجاربه وبحثه وراء

سعادة يريد تحصيلها، وقد حللها وشرحها فى العصور الحديثة جمع من فلاسفة الانجليز، أشهرهم بالى وجرمى بنتام وميل ويعرف المذهب الآن « بمذهب المنفعة » (١) وان كان مؤسسا على نظرية السعادة، قال « جون ستورت ميل » فى رسالته فى مذهب المنفعة «ان جميع القائلين بمذهب المنفعة من أبيقور الى بنتام لم يريدوا بالمنفعة شيئا يخالف اللذة بل ارادوا اللذة نفسها والخلو من الالم، وانهم لم يقولوا ان الشيء النافع يضاد اللذيذ وما هو حلية وزينة بل قالوا انه يشملهما ويشمل غيرهما » وعرف مذهب المنفعة بقوله « ان المذهب الذى يتخذ أساس الاخلاق المنفعة أو اكبر سعادة مذهب يرى ان الاعمال خير بقدر ماتدعو الى الزيادة فى السعادة وشر بقدر ماتدعو الى الزيادة فى ضدها، والمراد بالسعادة اللذة والخلو من الالم وبضدها الالم والخلو

(١) يظهر من كلام المؤلف انه يريد ان يستعمل كلمة مذهب المنفعة Utilitarianism مرادفا لمذهب السعادة Hedonism مع ان مذهب المنفعة انما يفهم منه المذهب القائل بأن غاية الانسان سعادة النوع الانسانى أو كل حساس وان مقياس الخير والشرهو سعادة الناس كلهم لا العامل وحده فهو اذن اخص من مذهب السعادة لان مذهب السعادة يشمل هذا ويشمل المذهب القائل بان مقياس الخير والشر هو سعادة العامل نفسه فانظر (المعرب)

من اللذة » من هذا نستنتج أن هذه النظرية القائلة « بأن الاعمال ليست لها قيمة ذاتية وانما قيمتها بقدر ماتحصل من السعادة » تسمى نظرية المنفعة

وخالف فى هذا القول بعض الفلاسفة فقالوا أن الاعمال الاخلاقية،ليست وسائل(كما يقول مذهب السعادة) بل هى أنفسها غايات و بسيرنا على مقتضى قانون الاخلاق تؤدى الغرض الذى من أجله خلقنا ، و بسلوكنا الاخلاقى نرقى قوانا التى منحناها لنحصل بها العلم ونعرف ماهو حق وما هو خير . وبسلوكنا الاخلاقى أيضا نستعمل قوانا الاخلاقية ونرقيها ، ويترقيتنا لقوانا العقلية والاخلاقية نصل الى كمالنا وهو مقصدنا فى الحياة ، وهذا الرأى هو أساس الاخلاقية المسيحية

ولكن على مذهب السعادة سعادة من نقصد ؟ قال قوم اننا نقصد تحصيل سعادتنا الشخصية وقال آخرون نقصد تحصيل السعادة لغيرنا أو السعادة لاكبر عدد، ولخص جرمى بنتام رأيه فى ذلك فى قوله «اكبر سعادة لاكبر عدد»

٤ ويتصل بمسألة الغاية والمقصد البحث فى الباعث النفسى على العمل أومنبع السلوك الاخلاقى، و بيان ذلك ان للانسان

لم يمنح العقل والفكر فقط بل منح أيضا الشعور . وللشعور سلطان على طريقته فى التفكير، وبواسطة ذلك يكون للشعور أيضا سلطان على اعماله ، فكثيراً مانرى الانسان يتجه — اتجاها ينطبق على العقل — نحو سلوك اخلاقى ثم يتغلب عليه طبعه أعنى دوافع ليست دائما متفقة مع العقل بل كثيراً ماتحيد بالانسان عن الصواب فى الحكم ، فالشعور عاله من التأثير الشديد فى عزمنا الاختيارى يجعلنا نميل الى عمل اكثر مما نميل الى آخر ، فحالة العقل الباطنة مع تأثيرها فى العامل تعتمد — الى درجة كبيرة — على الطبع والمزاج والبيئة — وأيضا قد يكون الدافع فينا أقوى من العقل فيتغلب على عقلنا فى لحظة ما من لحظات الحياة ويقودنا الى اعمال نراها فيما بعد على خلاف مانراها وقت الدافع ، ويجعلنا نتردد فى الاتيان بعمل ونسرع الى الاتيان بآخر ، فظهر من هذا إن غرضنا الاختيارى وسلوكنا الاخلاقى وان كانا وسيلة لتحصيل غاية الا انهما كذلك يعتمد ان على الدافع الطبيعى وعلى باعث يستميلنا للسعى وراء هذه الغاية، وليست الغاية متفقة مع الباعث فحسب بل هى الى درجة كبيرة تعتمد عليه أيضاً . ولسنا نعرف بعقولنا — فحسب — أنه ينبغى أن تسير فى طريق خاص دون غيره ، بل نشعر

بذلك أيضاً . وليس نظرنا الى المصلحة أو المنفعة وحده هو الذى يوجهنا وجهة خاصة ويشكل اعمالنا بشكل خاص، بل العاطفة والشعور أيضاً يعملان ذلك

واستكشاف الدافع العام للناس جميعا ، والمحرك العام للسلوك الانسانى، والعاطفة الاخلاقية أو الشعور الاخلاقى الذى هو بمعزل عن العقل ، والذى يؤثر فى عزمنا ، والذى هو متأصل فى أعماق اعمالنا — مسألة من المسائل الهامة التى اجتهد فلاسفة الاخلاق فى حلها واختلفوا فى الاجابة عنها ، فذهب قوم مثل هوبز الى أن الانسان انما يعنى بسعادته هو وان كل انسان انما يحارب من أجل نفسه، وان أساس اعماله الأثرة « الانانية » وقاعدة سلوكه رغبته فى نفع نفسه ،وليس حبه الظاهرى لجاره الا ضربا خفيامن ضروب حب نفسه. نعم انه قد يفعل خيراً لغيره ولكن ليس الا لان فعله يسبب له لذة أو يوصله الى غرض له ، والسبب النهائى فى اطاعة الانسان للقوانين الاخلاقية « من صدق وكرم ونحوهما » ليس الا انانيته وكل مايسمى ايثارا أو عملا ليس فيه مصلحة شخصية تجده بعد الفحص الدقيق نتيجة رغبة فى منفعة شخصية يراد تحصيلها عاجلا أو آجلا وذهب آخرون مثل هيوم. وآدم سمث الى أن فى الانسان

أيضاً عاطفة حب للناس، وان فى نفس الانسان عاطفة تدعوه للاتيان بأعمال يريد بها أن يزيد فى سعادة بنى جنسه، وان سعادة النـاس و بؤسهم لاحب النفس ومراعاة لذتنـا نحن هو المتأصل فى طبيعتنا وهو الاساس العام لسلوكنا الاخلاقى، أعنى أنه هو الاساس الذى ينبنى عليه المدح والذم. وتسمى هذه النظرية نظرية الايثار، وهى ضد نظرية الاثرة، ومن أتباعهـا آدم سمث وهيوم، وهى تقول ان فى طبيعتنا شيئا نقومه اكثر من تقويمنا لسعادتنا الشخصية، وذلك الشيء هو مايحس به العامل عملا اخلاقيا من مشاركته لمن ينالهم بره فى السرور والعواطف والسعادة، وذلك الشيء أيضاً هو العنصر الاخير الذى تحلل اليـه عواطفنا وانفعالاتنا — ان نفوسنا لتهتز عطفا على الناس ورحمة بالمنكوبين وغضبا على الخاطئين، وانا لنحس برغبة شديدة تنبعث من نفوسنا تحملنا على العمل لخير الناس وسعادتهم، وهذا الشعور بأنواعه التى ذكرنا يكوّن قوة كبيرة صادرة من طبيعتنا ومؤثرة فى سلوكنا الاخلاقى تارة بحملنا على بعض الاعمـال وطورا بمنعنا من ارتكاب بعض آخر — والى المذهب الاول أعنى مذهب الأثرة ذهب فلاسفة اليونان الاقدمون والفلاسفة الذين كانوا فى عصر الثورة الفرنسية، وذهب هذا المذهب

فى العصور الحديثــة ماكس سترنر ونيتشه ، والى المذهب الثانى أعنى مذهب الأيثار ذهب «كانت» وفخته وشو بنهور ، وذهب آدم سمث وجون ستورت «ميل» الى أكثر من ذلك فطلبا من العامل الاخلاقى تضحية النفس « ولكن لا تبذل هذه التضحية مالم تكن سببا فى سعادة الآخرين »

قال « ميل » : « ان من نقص الدنيا واختلال نظامها أن احسن طريق يمكن الانسان أن يسلكه فى مساعدة غيره على تحصيل السعادة هو تضحيــة سعادته تضحيــة تامة ، ولكن مادامت الدنيا على هذا الحال من النقص فاننى أقران الاستعداد لتلك التضحية أكبر فضيلة يمكن أن يتصف بها الانسان» «ان أصحاب مذهب المنفعة يقولون أن النوع الانسانى يمكنــه أن يضحى اكبر خيراته من أجل خير الآخرين ، ولكن لا يقولون بأن هذه التضحيــة فى نفسها خير، بل يقولون ان كل تضحية لا تزيد فعلا فى مقدار الخير فى العالم ولا تدعو الى ذلك لا يعتد بها وتذهب هباء، وليس عنــدهم تعفف محمود الا ما كان موصلا الى خير الآخرين ويشترط أن يزيد فى مقدار الخير العام اكثر مما ينقص منــه »

٥ وهناك مسألة أخرى شغلت عقول فلاسفة الاخلاق

وهى مسألة المقياس الاخلاقى وما له من سلطان ، وبعبارة أخرى مسألة أساس الاخلاق وعلاقته بارادة الانسان أى القانون الاخلاقى وما له من قوة ملزمة تحمل الارادة على العمل بموجبه [1] قال « ميل » فى رسالته « مذهب المنفعة » : « انى أشعر بأنى ملزم بألا أسرق ولا أقتل وبألا أخون ولا أخدع . ولكن لم ألزم بالعمل للسعادة العامة ؟ واذا كانت سعادتى الشخصية فى شيء فلماذا لا أفضله على غيره ؟ » وأيضاً أن الواجبات على الناس والاحكام التى تصدر على الاعمال لتختلف باختلاف الاشخاص وأخلاقهم وان ما تحمل الاشخاص من المسؤلية ليختلف باختلاف الاحوال

---

(١) موضوع هذه المسألة المقياس الاخلاقى standard اى المقياس الذى نقيس به الخير والشر وسلطانه sanction أو جزاؤه أى ما للمقياس من قوة ملزمة ولتوضيح ذلك اقول اننى اذا قلت مثلا ان اساس الخير والشر هو سعادة الناس كلهم كان هذا هو المقياس فالعمل يكون خيراً بقدر مايسبب سعادة للناس وشراً بقدر مايسبب من شقائهم ولكن ما الذى يحمل الناس على العمل بهذا المقياس وما الذى له من القوة حتى يطيعه الناس فلا يعملون الا مايسبب السعادة ؟ هذا بحث فى سلطان المقياس فاذا قلت مثلا انه يحملهم على اطاعته خوف الناس والله والرغبة فى مثوبتهما أو يحملنى على اطاعته دافع نفسى هو الوجدان كان ذلك هو سلطان القانون فسيتكلم فى هذه المسألة عن المقياس وسلطانه (المعرب)

أليس من الجائز اذن أن نكون فى احكامنا مخطئين . أو ليس من المحتمل أن نكون فى عملنا مبطلين ونحن نظن انا محقوق ؟ فأين نجد مقياس الاخلاق وما الذى له من سلطان ؟ على هذا السؤال أجيب بجوابين فقال قوم ان المقياس الاخلاقى فى أنفسنا ، وانه لصوت فينا يخبرنا كيف نميز بين الحق والباطل ، وان القانون الاخلاقى مستمد من نفوسنا ، تشرعه قوة فينا ، وهو مقيم فى اعماق نفوسنا يساعدنا على ازاحة حجب المظاهر حتى نصل الى ادراك الواجب ، وهذا القانون الاخلاقى (المقياس) يهدينا فى أعمالنا وله سلطان قوى على كل مصادر السلطان الاخرى ، وتسمى هذه النظرية نظرية « القانون الذاتى » Autonomous لقولها بوجود القانونى الاخلاقى فى طبيعة الانسان — وبعض هؤلاء الفلاسفة اعتبر هذا الصوت الباطنى هو صوت العقل ويسمون بالعقليين . وقد كان قدماء الفلاسفة والفلاسفة الذين فى عصر الثورة الفرنسية الكبرى عقليين بهذا المعنى . وهم يجعلون للعقل القول الفصل فى الحكم على الاعمال ، وله سلطان قوى على سلوك الانسان ، وفى طليعة القائلين بهذه النظرية « كانت » ، وقال قوم يجب أن يفسح العقل مجالا للشعور وان السلطان الذى

يحمل على اطاعة القانون الاخلاقى أنما هو فى أنفسنا كما قال هيوم وشوبنهور وآدم سمث وغيرهم ولكن ليس مركزه العقل بل الشعور فسلطان القانون الاخلاقى شعور باطنى مغروس فى نفوسنا و«هذا الشعور ألم مختلف الشدة يعقب مخالفة الواجب ويحمل — فى الاحوال الهامة عند من صلحت تربيتهم — على النفور من المخالفة حتى يخيل لهم أنها مستحيلة » (١)

وعلى الضد من نظرية « القانون الذاتى » نظرية « القانون الخارجى » Heteronomous وهى تضع المقياس الاخلاقى وسلطانه فى يد سلطة خارجية فهى تقول ان الخوف من الله رب العالمين ، والخوف من المخلوقين والرغبة فى تحصيل الثواب من الله ، والاستحسان من الناس هى أساس الواجبات الاخلاقية ، وهى السلطان الحامل على اطاعة القانون الاخلاق وأن القانون الاخلاق والقواعد التى تبين السلوك الاخلاقى (المقياس) تستمد من قوة خارجية لا من قوة فينا كارادة الله أو الملك أو قانون المجتمع

ومما يتصل أشد اتصال بهذه المسائل الاخلاقية مسألة

---

(١) من رسالة « ميل » فى ذهب المنفعة

حرية الارادة، ولتوضيح ذلك نقول: هل ارادتنا حرة فنحن نطيع القانون الاخلاقى ونخضع له اختياراً ؟ وهل اطاعتنا للقانون الاخلاقى تشعر بان لنا اختياراً وان العامل حر فى اختيار العمل وحر فى تشكيل عمله بما يشاء وحر فى استعمال القانون الاخلاقى حسب مايحيط به من الظروف ؟ أو اننا مضطرون بمقتضى الطبيعة أن نعمل فى الحالة المعينة عملا خاصا بحيث لا نستطيع أن نعمل غيره وان ارادتنا معلولة بعلل فاذا حصلت العلل حصل المعلول وان عزمنا على اتيان عمل وان كنا نشعر باننا أحرار فيه ليس الا نتيجة لازمة لاسباب تسبقه وتستلزمه ؟

انقسم الفلاسفة فى الاجابة عن هذا الى قسمين تحاجا ولا يزالان يتحاجان الى اليوم فمذهب يرى ان الارادة حرة حرية مطلقة لا يضطرها اى سبب ولا أية علة ويعرف هذا المذهب بمذهب الاختيار، ومذهب يرى ان ارادة العامل واختياره نتيجة لازمة لاسباب سابقة ويسمى مذهب الجبر، ومسألة الجبر والاختيار من المسائل الهامة التى حاول حلها كل من الدين والفلسفة

الفصل الثالث عشر

نظرية المعرفة

١ كثيراً ماتعرف الفلسفة بأنها نظرية « الكون والمعرفة » ، فعلم ما بعد الطبيعة يبحث فى حقيقة الكون وأصله ، أما مايبحث فى المعرفة نفسها (العلم بالشىء) أعنى حقيقتها ومنبعها وحدودها التى تقف عندها فيكون فرعا آخر من الفلسفة يسمى «نظرية المعرفة» أو «ابستمولوجيا» وقد وجه فلاسفة اليونان الاولون نظرهم للبحث فى حقائق الاشياء وطبائعها وهذا التفلسف والنظر الذى يفوق انظار السذج والعامة وآراءهم تدرج بالمفكرين الذين يبحثون عن الحقائق — الى البحث فى مسألة أخرى وهى لماذا يختلف نظرى الى الاشياء عن انظار غيرى من الناس ؟ ولماذا تختلف نظرياتى المبنية على البحث عن الافكار الشائعة بين العامة ؟ أنى أعرف أن الناس على باطل وانى على حق وان هناك عالماً من الاشياء خارجا عنى يعرفه عقلى . فكيف تدخل المعرفة بهذه الاشياء فى عقلى فتثير افكاراً تولد عالما من الاشياء فى داخله ؟ كيف حصلت هذه المعرفة ولم يفكر الناس على خلاف ما افكر ؟ اين منبع

الحقيقــة التى حصلتها ؟ أين أصل المعرفة وحدودها التى تقف عندها ؟ وما حقيقتها وطبيعتها ؟ هذه الابحاث أدت الى الشك فى صحة المعرفة و فى الوثوق بها ، وجاش فى النفس هذا السؤال : هل يمكن بحال أن نعرف الحقيقة وأن نجد مقياساً صحيحاً عاما نقيس به الاشياء لنعرف صحيحها من باطلها؟ قد كان العقل البشرى فى أول الامر يميل الى العمل والسير فى الحياة من غير أن يسأل نفسه سؤالا كهذا حتى اذا وقع فى الخطأ ورأى آراء تناقض آراءه اعتراه الشك ولم يعد يثق بما يرى . وبعد ان كان الفكر يشتغل بالاشياء الخارجية توجه للبحث فى نفسه هو باحثا عن نصيبه من الصحة فسأل : ما المعرفة وما علاقتها بالحقيقــة ؟ هل المعرفة ممكنة وهل يستطيع العقل البشرى الوصول اليها واذا كان كذلك فكيف الوصول ؟ هذه اسئلة وابحاث توجه اليهــا العقل الانسانى الشيق الى ان يعرف ، بعد ان بحث ابحاثه فيما بعد الطبيعة

قال « بولسن » : « ان الفلسفة ابتدأت فى جميع أمما كنها بالبحث فيما بعد الطبيعة فكان البحث فى شكل العالم وتكونه واصله و فى طبيعة الكون وماهيــة الروح وعلاقتها بالبدن هو موضوع الفلسفة الاولى و بعد ان استغرقت

هذه الابحاث زمنا طويلا اتجه الفكر للبحث فى المعرفة وامكانها ، ورأى العقل البشرى ضرورة النظر فيما اذا كان من الممكن بحال حل هذة المسائل. ومن هذا النظر نتجت « نظرية المعرفة ». من هذا يفهم ان البحث فى صحة معرفة الاشياء وحدودها وعلاقتها بحقائق الاشياء هو موضوع مايسمى نظرية المعرفة أو ابستمولوجيا

فيمكننا أن نجمل الغرض من نظرية المعرفة ومسائلها فى أسئلة ثلاثة هامة وهى :

(١) ما المعرفة ؟ وهو سؤال عن نفس المعرفة

(٢) بم أحصل المعرفة ؟ وهو سؤال عن أصل المعرفة ومنبعها .

(٣) هل يمكن تحصيل المعرفة ؟ وهو سؤال عن صحة المعرفة وحدودها

٢ وقد أجاب العلماء عن هذه الاسئلة اجابات وردت ضمنا فى تاريخ الفكر ، وكانت مختلفة تبعا للاختلاف فى المذاهب الفلسفية ، فذهب قوم من الفلاسفة الى ان معرفة الاشياء نسخة طبق الاصل لحقائق الاشياء، وصورة دقيقة فى عقولنا لما فى الخارج، وان الاشياء فى الحقيقة والواقع مطابقة لمظاهرها التى ندركها بواسطة القوى المدركة ، وان العالم

الخارجي فى الحقيقة كما ندركه وهو مستقل فى الوجود عن ادراكنا، وان مظاهر الاشياء وحقائقها متطابقة وادراكنا للاشياء كما هى فى الواقع هو المعرفة ، وهذه العقيدة اعنى ان الاشياء المحققة لها وجود فى الخارج مستقل عما يماثلها فى الذهن تسمى « مذهب الواقع » ، وهذا المذهب يرى أن ما ندركه بالحواس سواء كان ادراكا يقينيا أو ظنيا وما نعرفه بالتأمل بالفكر[1] — وهما اللذان بهما تحصل المعرفة بالاشياء — نتيجة شىء حقيقى موجود فى الخارج مستقل عن ذهننا ، فالمعرفة على هذا المذهب هى ادراك الاشياء كما هى فى الواقع بواسطة آلات البدن والنفس، فالشىء أسود أو أحمر لان به صفة جعلتـه أسود أو أحمر فاذا انعكس على اعيننا ادركنا سواده أو حمرته ، وهذه الصفة موجودة محققة سواء انعكس الشىء على عين الانسان اولا — ويقابل هذا المذهب مذهب « الظواهر » أو مذهب المثال وهو يرى ان «ادراك الاشياء» و«الاشياء فى انفسها» وبعبارة اخرى « مافى الفكر » وما « فى الخارج » مختلف اختلافا كبيراً ، وعلى هذا المذهب ليست المعرفة ادراك الاشياء كما

---

(١) يعنى بالتأمل Reflecton ملاحظة العقل لاعمال نفسه

هى فى الواقع ولا هى كما يقول الواقعيون نسخة طبق الاصل
ولا صورة دقيقة للاشياء نفسها، بل المعرفة ادراك الاشياء
حسب مايظهر لنا، اذ لا يمكن أن يكون بين المعرفة التى هى
عملية نفسية والاشياء الخارجية تشابه، وليس العالم الذى حولنا
الا نتيجة انتجها عقلنا وكل مانعرف من العالم والاشياء
الخارجية سواء كان طريق المعرفة حواسنا أو تأملنا
الفكرى ليس الا خيالا يولده العقل ؛ وبينا يرى الواقعى
« ان الادراك بواسطة الحواس يحدث عندما يقيننا بها وان
فى ذلك الادراك ضمانة لحقائق الوجود « اذا بالمثالى يرى»
ان حقائق الوجود الخارجى ليست الا قابليتها لان تدرك »

٣ اما السؤال الثانى واعنى به السؤال عن اصل المعرفة
ومنبعها فقد اجيب عنه بجوابين

أما الحاسيون أو التجربيون فقالوا ان كل معرفة انما
سببها الادراك بالحواس، وبعبارة أخرى ان منبع معرفتنا
هو الادراك الاول أعنى الادراك بالحواس باطنة اوظاهرة،
فباجتماع هذه الادراكات وتركيبها واتقانها نحصل التجارب
وبجمع التجارب وترقيتها نحصل المعرفة، فمنبع المعرفة اذن عمل
الحواس أى « الادراك بالحس »و «التجربة» وهما يقابلان
عند أصحاب النظرية الأخرى الآتى شرحها « التفكير ».

و « الفكر »[١]. وعلى هذا المذهب تكون كل معرفة ولو كانت فكرا عميقاً أو « لقانة » ترجع الى الادراك الحسى فمذهب الحاسيين أو التجريبين اذن هو المذهب القائل بان التجربة هى المنبع الوحيد للمعرفة أو على الاقل أساسها ، وان كل معرفة تنبع من التجربة ، والتجربة نوعان فاما أن تكون مستقاة من الحواس الظاهرة واما من الباطنة فادراك الاشياء الخارجية يسمى احساسا وادراك الاشياء

(١) قال بروتا غوارس رأس السوفسطائية ان الادراك بالحس هو المصدر الوحيد للمعرفة ومع ذلك فهذا الادراك انما يعرفنا ظاهر الشيء فقط لا حقيقة الشيء نفسه ومن أجل هذا كان كل رأى ينشأ عن الادراك بالحس صحيحاً عند المحس وحده بل صحيحاً فى لحظة واحدة وهى اللحظة التى حصل فيها الادراك اما الصحة العامة المطلقة فلا وجود لها — واذا كانت معرفة الانسان لامنبع لها غير الادراك بالحس وكان شأن الادراك ماذكرنا كانت معرفة الانسان لا يوثق بصحتها — وقد سلم افلاطون بهذا الرأى وهو أن الادراك بالحس انما يكون معرفة وقتية وعنده أن هذا الادراك انما يعرفنا ظواهر الشيء لا حقيقته (ولكن لم يقصر الادراك على الحس) وبينا بروتا غوارس يقول بان معرفة الشيء لا يمكن أن تنال اذا بأفلاطون فى كتابيه ثيتيو نوس وتيمايس يقول بأمكان المعرفة وقال ان ما يقرب الى المعرفة هو الرأى الصحيح الذى يستطيع الانسان أن يبرهن عليه ويعنى أفلاطون بالمعرفة معرفة حقائق الاشياء فهو فى قوله هــذا من العقليين (المؤلف)

الباطنية يسمى تأملا، والادراك بنوعيه باب ينفذ منه ضوء المعرفة « الى حجرة الفهم المظلمة »

قال «لوك» فى رسالته «العقل البشرى»: « لنفرض أن العقل صحيفة بيضاء خالية من أية كتابة وأى معنى . فكيف استعدت لأن تتلقى مايلقى اليها ومن أين لها ذلك المستودع العظيم الذى نقشه عليها خيال الانسان الواسع نقشاً متنوعاً الى أنواع لاتحد ومن اين لها كل مواد الفهم والمعرفة ؟ عن كل هذه الاسئلة أجيب بكلمة واحدة وهى « من التجربة » فمنها استقينا كل ماعرفنا ومنها نستمد المعرفة . فملاحظتنا سواء كانت ملاحظة محسوسات خارجية أو ملاحظة عمليات العقل الباطنية و بعبارة أخرى سواء كانت ادراكا بالحس الخارجى أو تأملا فكرياً هى التى تزود عقلنا بكل أدوات التفكير ومن هذين الينبوعين تنبع كل أفكارنا ....وكل افكار يمكن أن تكون .... وهما — على ما أعرف — المنفذان اللذان ينفذ منهما الضوء الى تلك الحجرة المظلمة اذ يظهر لى أن العقل كحجرة صغيرة حرمت من كل النوافذ الافتحات صغيرة تدخل منها صور المحسوسات الخارجية أو الآراء المتعلقة بها »

وقال : « لهذا كان أول مقدرة للعقل هو أن يكون صالحا

الانفعال اما بواسطة الحواس التي تدرك الاشياء الخارجية واما بالعمليات التي يعملها العقل عند التأمل في هذه الاشياء، وهذه أول خطوة يخطوها الانسان لاستكشاف أي شيء، والأساس الذي تنبني عليه كل الآراء التي يحصلها في هذا العالم . فكل الافكار الراقيـة الجليلة التي تفوق السحاب رفعة وتعلو علو السماء انما أصلهـا الحواس . يسبح العقل مسافات بعيدة ويفكر ويتأمل تأملات رفيعة وهو في كل هذا لايخرج قيد ذرة عمـا أمدته به الحواس أو التأمل (الفصل الاول من الجزء الثاني) » من هذا يعلم ان الحاسيين أو التجربيين يرون أن ما يمكن أن يجرب هو وحده الذي يمكن أن يعرف ،وان أداة المعرفة الصحيحة هو الادراك بالحس ومدركاتنا عند التجربيين ناشئة من قوة الادراك بالحس،أما قوة الفكر فقابلة في الغالب لما يرد عليها لا فاعلة (انظر فلكنبرج ص ٣١٨)

٢ ويعارض نظرية الحاسيين أو التجربيين نظرية الذهنيين أو العقليين وهؤلاء يقولون ان التجربة التي تحصل بواسطة الحواس مضلة موهمة، وان الحواس لخداعة كذابة مخطئـة ، فاذا كانت كل معارفنا بواسطة الادراك بالحس فالمعرفة مستحيلة،ذلك لان الادراك والتجربة انما يخبرانا بما

يتعلق بحـالة واحدة من أحوال الشيء ، ولا يستطيع ان يتناولا كل الاحوال ، فلو كان الامر قاصرا عليهما لما عرفنا حقيقة عامة، واذ كان من الثابت ان المعرفة ممكنة وجب ان نقول ان بعض المدركات التى تكون المعرفة ليس أساسها الحواس . ولان تعد الحواس عدوا للمعرفة الحقـة أقرب من أن تعد خادمة لها. وان ما يظهر للعقل بواسطة الحواس انما هو مظهر الاشياء الخارجى الخداع لا ماهيتها الحقة التى لاتحس (انظر فلكنبرج ص٢١٩) . فالمعرفة اذاً انما تحصل بالفكر — وبالتفكير وحده يمكننا أن (نشرف على مملكة الظواهر المتغيرة) وبينا التجربى يرى ان كل الحواس والتـأمل منبع المعرفة اذا بالعقلى يرى ان التفهم والتعقل هو المنبع الوحيد للمعرفة — ويستدل العقليون بان العلم والفلسفة يميلان الى العموم والضرورة [1] كما يظهر ذلك فى العلوم الرياضية التى هى أهم مظهر للمعرفة العلمية . والعلم والفلسفة لا يمكن أن يحصلا بالتجربة. لانها محدودة ، وانما

---

(١) الظاهر انه يريد بالعموم الشمول فاذا قال العلم ان زاوية المثلث تساوى قائمتين كان ذلك عاما فى كل مكان وزمان ويريد بالضرورة خضوع مايحدث فى العالم لاسباب تنتجه . فالعلم لا يقول بحدوث شىء اعتباطا بل انما يحدث بناء على قوانين استوجبت حدوثه

يحصلان من طريق العقل الذى به الادراك ، وهو وحده المدرك،ثم كيف يفهم ما لا يحس كالله و الابدية ومجموع العالم اذا نحن اعتبرنا التجربة لا العقل منبعا لمعرفتنا وآرائنا ؟ الحق انه بواسطة التفكير المحض وحده يمكننا فهم حقائق الاشياء ، وقد غلا بعضهم فى معارضة التجربيين « فذهب الى انه لا يصل شيء الى النفس من الخارج ولا يمكن للنفس ان تبتكر شيئاً اذا لم يكن من الاصل فيها »

٥ اما شغل العقليون والتجربيون انفسهم بمسألة المعرفة ، فذهب الاولون الى انها تحصل بواسطة العقل المحض وبه وحده تحصل العلم بالاشياء، اما بواسطة الادراك بالحس فمستحيل ان يحصل ذلك ، والتجربيون ينكرون تحصيل المعرفة،بالعقل المحض ولكن لم يتعرض احد المذهبين لمسألة امكان المعرفة ، فكلاهما وثق بالعقل البشرى ثقة تامة واعتقد بقدرته على معرفة الاشياء ، ولكن لما كان هذا الوثوق بالعقل و بقدرته على تحصيل الحقائق قد تزلزل بنظرية التجربيين كانت النتيجة اذ ضعفت الثقة بالعقل اولا وتلا ذلك تعريضه للنقد والامتحان

وظهرت هذه المسألة:هل تمكن المعرفة ؟ واذا امكنت فالى اى نقطة تمتد وما حدودها ؟ والعقليون والتجربيون

لم يبحثا فى هذه المسألة ، بل آمنا بأن لنا قدرة على معرفة الأشياء أما بواسطة الادراك بالحس واما بواسطة التفكير، وبأن الأشياء فى الحقيقة هى كما ندركها ، ويسمى هذان المذهبان مذهب اليقين نظراً لتيقنهما بامكان المعرفة

ويعارض مذهب اليقين مذهبان آخران يكونان نظامين من نظم الفلسفة ويتعلقان بمسألة امكان المعرفة وحدودها : أحدهما مذهب الشك والآخر مذهب النقد. فمذهب الشك يشك فحسب وينكر امكان المعرفة وقدرة الانسان عليها ، ويمسك عن ابداء أى رأى، ويقابله مذهب النقد فهو بدلا من أن ينكر ببساطة ويشك من غير تعليل ينقد ويبحث فى كيف نشأت المعرفة كما يبحث فى حدودها

رأى النقاد « أصحاب مذهب النقد » أنفسهم أمام مسألتين لا تحل ثانيتهما الا بحل أولاها. فقبل أن يبحثوا فى منبع المعرفة وأصلها قالوا يجب أن يبحث فى حدود المعرفة ويقام البرهان على امكانها، وبعد أن تعرف الشروط التى بها تحصل المعرفة يمكن للانسان أن يعرف ما يمكن ادراكه بهذه الشروط « فلكنبرج ٣٢٢ »

٦ وانا نذكر كلمة مجملة فى تاريخ نشوء نظرية المعرفة (أبستمولوجيا) ففى عصر الفلسفة القديمة كان السوفسطائيون

أول من أثار البحث فى المعرفة ، ومهدوا السبيل للعقليين والتجريبين ، وفيها بحث الايليون وافلاطون وارسطو وفيها بحث الرواقيون والشكاك والابيقوريون، وفى العصور الحديثة كانت هذه المسائل فى مقدمة المسائل عند البريطانيين وغيرهم من الممالك الأوروبية فى القرن السابع عشر، فكان للعقليين نفوذ كبير فى ممالك أوروبا غير بريطانيا بما وضعه ديكارت (١٦٥٠) وسبينوزا (١٦٧٧) وليبنتز (١٧١٦) وولف (١٧٥٤) أما الباحثون البريطانيون بيكون (١٦٢٦) وهوبز (١٦٧٩) ولا سيما جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فكانوا تجريبين وقد أدت أبحاث لوك التجريبية الى مذهب الشك الذى وضعه هيوم (١٧٧٦) فى انجلترا كما ان بحث هيوم كان باعثاً قوياً « لكانت » على أن يرقى مذهبه النقدى وكما قيل « ينبهه من نومه اليقينى »

الخاتمة

هذا باختصار تام هو موضوع الفلسفة ومجالها بجميع فروعها ، وانه لمن الصعب أن نحيط بموضوع كهذا كتبت فيه مجلدات — فى رسالة صغيرة كهذه ألفت لسواد الناس ،

ومما يزيد الامر صعوبة أن يكون موضوع البحث مما اختلفت فيه الآراء اختلافا كبيرا كما هو الشأن فى الفلسفة حتى لقد وصل الجدال وامتد الخلاف الى تعريف الموضوع وماهيته ، وانى لآمل أن اكون قد أوضحت للقارئ شيئين

(١) أن الفلسفة تحاول أن تجيب عن هذه الأسئلة الباقية أبداً وهى : كيف ؟ وما ؟ ولم ؟ ما حقيقة الشيء الموجود ؟ كيف ظهر الى الوجود ؟ ماذا نعرف ؟ ماذا يجب أن نعمل ؟ لم يجب أن نعمل بهذه الطريقة دون غيرها ؟

(٢) ان الفلسفة ليست شيئاً بعيداً عن الحياة الحقيقية بل انها شيء مرتبط بمسائل الحياة اليومية ، مدرستها العالم وموضوعها ظواهر الكون ، وكتبها العقل الانسانى ، هى الفكر موجهاً الى العالم الذى حولنا والى كل مظاهره — والى حياة العالم الفسيح الذى كل منا جزء منه ، والى نفسنا التى بين جنبينا ، وبالاجمال الى العالم الكبير والعالم الصغير (الانسان) كل هذا شيء معروض على الوضيع والرفيع ، على العالم والجاهل ، فكل انسان باعتبار ما فى بعض لحظات حياته فيلسوف ، وستدوم الفلسفة ما دام الفكر البشرى.

ثم ليست مسائل الفلسفة فى كل العصور سواء ولا يمكن أن يكون ذلك كذلك . فان الفكر الانسانى فى تقدم ورقى

مشاهد فى كل مكان . فكم من مسائل اختفت وحل محلها مسائل جديدة . وكما أن الكهل يبتسم عند ما يلقى بنظرة على آرائه أيام صباه فيرى أن أهم شىء كان يراه فى أمسه أصبح تافها فى يومه كذلك النوع البشرى فى سيره قدماً يغير مزاعمه وآراءه ومثله العليا وينبذ عقائد ويعتقد أخرى ولا يكاد العقل البشرى يجد حلا لمعضلة قديمة حتى تظهر أخرى جديدة ، ويكاد فى نفس الوقت الذى وفق فيه الى حل ظاهرة غامضة وايضاحها تظهر مشكلة جديدة فى أفق الفكر البشرى ، وان حب المعرفة والشوق اليها والرغبة فى كشف الحجاب عن الطبيعة والنفوذ الى أسرارها لمعرفة الحقيقة ستظل خالدة فى أعماق صدر الانسان . نعم ان الثورات العظيمة التى تقوم فى مملكة الفكر ستحل الالغاز القديمة وتقلب الأفكار العميقة المتأصلة رأساً على عقب ، وتبدد العقائد القديمة والمثل العليا العتيقة ولكن لا بد أن يكون للانسان جديد يقوم مقامها . وان حل الالغاز المتشعبة التى لا تفتأ تظهر والعمل على ايجاد مثل عليا جديدة ووضع الحقيقة الجديدة محل القديمة واعتناقها وبناء الانسان أعماله وسلوكه عليها كان ولا يزال وسيكون غرض الفلسفة

« تم الكتاب »

(معجم لأشهر الرجال الذين ورد ذكرهم فى الكتاب)

آدمْ سْمِثْ A.Smith فيلسوف انجليزى (١٧٢٣ — ١٧٩٠) كان استاذ المنطق والأخلاق فى جامعة غلاسكو ويعد واضع علم الاقتصاد السياسي . وجه الأنظار الى البحث فى حرية التجارة والعمل ورأس المال بحثاً علمياً

أَبيلَرْد Abelard (١٠٧٩ — ١١٤٢) عالم فرنسي يعد من كبار المفكرين فى القرن الثانى عشر — اشتهر بمخالفته لتعاليم الكنيسة فى عصره وبقوله بما يقرب من عقيدة الموحدين وبما اوقع عليه من العقاب من رجال الدين وفتح مدرسة للحكمة فى « ميلون » بالقرب من باريس

إَبيقور Epecurus (٣٤١ — ٢٧٠ ق م) فيلسوف يونانى أسس مدرسة فى أثينا وسط حديقة وكان يعلم فيها الفلسفة ـ لم يصل الينا كثير من تآليفه وأغلب ما علمنا عنه انما هو من نقل اتباعه وكان يرى أن لا خير الا اللذة ولا شر الا الألم ، وان الفضيلة انما تقصد لما فيها من اللذة والرذيلة انما تجتنب لما فيها من الألم ، وليست السعادة عنده الا نيل اللذائذ ولم يقصر ابيقور قوله على اللذات الجسمية كما فهم بعض الناس من مذهبه بل اعترف باللذة العقلية وفضلها على

غيرها وقد تبعه فى العصور الحديثة جيسندى (انظر جسندى)

أرسطبس Aristippus فيلسوف ولد فى قورينا Cyrene (مدينة من مدن برقة فى شمال أفريقيه) نبغ نحو سنة ٣٨٠ ق م ورحل الى اثينا وتتلمذ لسقراط وهو أول من قرر المذهب الاخلاقى القائل بأن تحصيل اللذة والخلو من الألم هما الغاية الوحيدة فى الحياة وان الفضائل انما كانت فضائل لما فيها من اللذة ويسمى مذهبه المذهب القورينائى نسبة الى قورينا مسقط رأس رئيس المذهب

أرسطو أو أرسطاليس Aristotle (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) اعظم فلاسفة اليونان الاقدمين رحل الى أثينا ولازم افلاطون يأخذ عنه العلم حتى مات أفلاطون وأسس بأثينا مذهباً يسمى اتباعه بالمشائين لانه كان يعلم فى مماش مظللة ويلقب بالمعلم الاول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه الاسكندر المقدونى فعلمه نحو ثلاث سنوات وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة

البيان Ulpian (١٧٠ — ٢٢٨م) مشرع رومانى الف كتبا كثيرة فى التشريع

أنكساغوراس Anaxagoras فيلسوف ايونى مات

سـنة ٤٢٨ ق م اتهم سـنة ٤٢٤ ق م بالالحاد وحكم عليه بالاعدام ثم استبدل بالنفى من أثينا بعد أن أسس بهامدرسة وتبنى فلسفته على أصلين الاول أنه لا يوجد شيء من العدم والثانى أنه لا بد للعالم من علة مدبرة ولم تصل الينا فلسفته واضحة بل كل ما وصلنا قطع متفرقة ناقصة

أَنَكْسِيمِنِسْ Anaximenes فيلسوف يونانى مشكوك فى تاريخ حياته الا أنه يظن أنه عاش من ٥٦٠ — ٥٠٠ ق م ولم يبق شيء مما كتب ويعرف عنه انه كان يقول بأن الهواء مبدأ أصلى للاشياء كلها وان العالم موجود بحركتى التكاثف والتمدد أى انقباض الهواء وانبساطه ، ورجع العناصر الاخرى اليه فقال ان النار هواء متمدد غاية التمدد والمـاء هواء متكاثف بعض التكاثف فان زاد التكاثف كان التراب والحجارة وسائر الجوامد

أُوغُسْطِينُوسْ هو القديس أوريليوس أوغسطينوس Augustine « ٣٥٤ — ٤٣٠ م » ولد فى أفريقيا فى بلدة قريبة من قرطاجنه وتعلم فى مدارس ما دوره وقرطاجنه وطالع شيئاً من الفلسفة وصار اسقفاً لـكنيسة هبو فاجتهد فى توجيد الـكنائس النصرانية وله تأليف كثيرة جمع فيها

أُوقْلِيدِس Euclid فيلسوف يونانى رياضى قيل أنه ولد فى الاسكندرية وتوطن أغريقية قبل الميلاد بثلثمائة سنة ثم جاء الى الاسكندرية وفتح مدرسة لتعليم الرياضيات صارت أشهر مدرسة فى مصر وأشهر كتبه كتابه المعروف باصول اقليدس ، منه قسم فى الهندسة لا يزال يعتمد عليه فى مدارس انكلترا واشتغل به العرب وشرحوه وممن شرحه نصير الدين الطوسى وله تاليف أخرى عديدة

پَالِى Paley باحث انجليزى « ١٧٤٣ — ١٨٠٥ » كتب فى الاخلاق والسياسة

بِخْنَرْ Buechner فيلسوف مادى وطبيب المانى « ١٨٢٤ — ١٨٩٩ » وهو من اتباع داروين وقد ذكر مذهبه الدكتور شميل فى كتابه النشوء والارتقاء « من صفحة ٢٨٨ — ٢٩٦ ومن ٣٢٢ — ٣٤٢ » فارجع اليه

بُرْك Borke هو سياسى وخطيب وكاتب انجليزى « ١٧٢٩ — ١٧٩٧ م » كتب فى الفلسفة والسياسة ولم يرض عن الثورة الفرنسية وانتقدها نقداً شديداً

بِرْكْلِي Berkely هو جورج بركلى «١٦٨٥-١٧٥٣» اسقف وفيلسوف انجليزى بحث فى نظرية المعرفة وذهب الى أن لا وجود للمادة وليس الا العقل والروح وكان له قدرة على التعبير عن الآراء الفلسفية بعبارة واضحة ظريفة

بْرُودِيكُوسْ Prodicus فيلسوف يونانى سوفسطائى كان فى زمن سقراط

بَطْلَرْ Butler يوسف بطلر فيلسوف انجليزى ١٦٩٢ — ١٧٥٢ م اشتهر ببحثه فى علم الاخلاق وما وراء المادة وكان يرى ان فى طبيعة الانسان دافعين رفيعين حب النفس والوجدان وهما الرئيسان على كل ما عداهما من الدوافع وتوسع فى نظرية الوجدان وكان يرى ان كل انسان يجد فى اعماق نفسه أساس الخير ويحس بأنه ملزم باتباعه

بِنْتَامْ Bentham هو جرمى بنتـام عالم انجليزى « ١٧٤٨ — ١٨٣٢ م » اشتهر ببحثه فى الاخلاق والقانون وهو من اكبر دعاة مذهب المنفعة وربما عد مؤسسه وهو القائل بان «مقياس الخير والشر اكبر لذة لاكبر عدد» والف فى اصول القوانين كتابه المشهور « اصول القوانين » الذى

عربه المرحوم فتحي باشا زغلول

بولس : القديس بولس St. Paul أحد الحواريين قتل فى رومه سنة ٦٦م

بيكون Bacon هو فرنسيس بيكون فيلسوف انجليزى «١٥٦١—١٦٢٦م» تعلم فى كمبردج ثم سافر الى فرنسا فجال فيها وفى سنة ١٥٨٨ عينته الملكة اليصابات وكيلا للدعاوى فى ديوانها ثم عين «مدعياً عمومياً» ثم جعل لوردا الخ وفى سنة ١٦٢١ اتهم بأخذ الرشوة وحوكم وحكم عليه بغرامة وبالعزل من منصبه وبالحبس ثم عفا عنه الملك

لم يقنع بيكون بفلسفة ارسطو ولم يرض عن نظام الفلسفة فى القرون الوسطى فقد كان الفلاسفة يضيعون جهدهم فى مناقشات قليلة الفائدة ويتلاعبون بالالفاظ ويقنعون بالحقائق المجردة التى لا يبنى عليها عمل ولكن بيكون وجه همته وفلسفته نحو المسائل العملية وما يسعد الناس وبهذا كان له الفضل على الفلسفة — الح بيكون فى طلب الملاحظة ودقة النظر والتجربة وان النتائج يجب ان يتوصل اليها من الاستقراء والعناية بالمعلومات وترتيبها وقال بضرورة تطبيق هذا المبدأ على علم الأخلاق والسياسة ويعد بيكون مؤسس الفلسفة التجربية

بَيْرُون Byron هو اللورد بيرون شاعر انجليزى مشهور « ١٧٨٨ — ١٨٢٤ »

بِيْن Pain عالم انجليزى « ١٨١٨—١٩٠٣ » كاتب فى النفس والأخلاق والمنطق

تِنْدَال Tindal « ١٦٥٦—١٧٣٣ » كاتب انجليزي كان من العقليين يقول بالاله وينكر الوحى

تينيسُنْ Tennyson « ١٨٠٩ — ١٨٩٢ » شاعر انجليزى شهير

تُولاَنْد Toland « ١٦٧٠— ١٧٢٢ » كان على رأى تندال فيما ذكرنا من الوحى

تِينْ Tane « ١٨٢٨ — ١٨٩٣ » مؤرخ فرنسى كتب فى آداب اللغة الانجليزية وبحث فى علم الجمال

جَانيه: بول جانيه Paul Janet «١٨٢٣-١٨٩٩» فيلسوف فرنسى كان مثاليا من اتباع هجل

جسِّنْدِي Gassenndi «١٥٩٢—١٦٥٥» فيلسوف فرنسى فتح مدرسة فى فرنسا أحيافيها تعاليم ابيقور وتخرج منها موليير وفولتير

جُوتيه : Goethe « ١٧٤٩ — ١٨٣٢ » أديب المانى كبير كان كاتباً وشاعراً وروائيا وفيلسوفا وعالما وكان يقول بالحلول وكانت حياته مثاراً للعواطف

دارْوِنْ Darwin « ١٨٠٩ — ١٨٨٢ م » فيلسوف انجليزى، غير وجه العلم بابحاثه خالف رأى الأولين القائلين بأن كل نوع من المخلوقات له خصائص ثابتة منذ البدء لا تتغير فكل نوع مستقل عن غيره وقال هو بالتحول أى أن هذه الخصائص تتغير على تمادى الزمان فتتحول الانواع الى أنواع اخرى جديدة وهكذا وان الانواع لم تخلق كلها فى زمن معين ولكن على التعاقب خلف بعضها بعضا وشرح علة هذا التغير فقال أنه ناشىء من تأثير البيئة ومن التربية وهو القائل بنظرية « تنازع البقاء وبقاء الصلح » أى أن أنواع الموجودات فى تنازع وعراك شديد من أجل البقاء والفوز فى هذا التنازع انما هو للانواع القوية اما غيرها فهو الى التلاشى والفناء

دَنْس سْكُوتَس Duns Scotus فيلسوف انجليزى من فلاسفة القرون الوسطى ولد نحو سنة ١٢٧٤ الى سنة ١٣٠٨ م اشتهر بمزجه الفلسفة بالدين

دِيكَارْت Descaret رياضى وفليسوف فرنسى يعد

مؤسس الفلسفة الحديثة «١٥٩٦ — ١٦٥٠» تعلم الادب ولم يقنع به فاشتغل بالفلسفة ولم يرض عن فلسفة ارسطو التى كانت شائعة فى عصره والتى كانت تؤخذ قضايا مسلمة من غير بحث فجاء ديكارت ووضع مبادئ جديدة من أهمها «١» عدم التسليم بشيء ما لم يفحصه العقل ويتحقق من وجوده فما كان مبنياً على الحدس والتخمين وما كان منشؤه العرف والعادة يجب أن يرفض «٢» طريقة البحث يجب أن تكون هكذا : نبتدئ بأبسط الأشياء وأسهلها ثم نتوصل منها الى ما هو أكثر تركباً وأغمض فهماً حتى نصل الى المقصود ولا نحكم بصحة مقدمة حتى نتحقق منها بالامتحان — وكان يؤمن بالله وبخلود الروح — وقد أثارت تعاليمه رجال الدين فى عصره فحاربوه وله استكشافات فى الطبيعة والرياضة

دِيمُقْرِيطُس Democritus فيلسوف يونانى ولد سنة ٤٧٠ ق م ولا تعرف سيرة حياته ولا تصانيفه معرفة دقيقة ويعرف بالفيلسوف الضاحك لأنه لم يكن يرى الا ضاحكا يضحكه منظر العالم وأحواله . ويناقضه فى ذلك هرقليطس «أنظر هرقليطس»

رَسْكِنْ Ruskin أديب ومصلح اجتماعى انجليزى

« ١٨١٩ — ١٩٠٠ » كتب فى الفن وفى الاقتصاد السياسى
ويتجلى فى كتبه النبوغ والاخلاص وكان يرى أن الفن
وعلم الجمال يجب أن يخضعا للأخلاق

رِنَان Renan إرنست رنان فيلسوف فرنسى «١٨٢٣
— ١٨٩٢» تربى فى أول أمره تربية دينية ودرس الفلسفة
واللاهوت وتاريخ الاديان واللغات القديمة وعدل بعد
بحثه العلمى عن الانخراط فى سلك رجال الدين وألف كتباً
كثيرة النفع منها كتاب « مستقبل العلم » وكتاب « ابن
رشد ومبادؤه » وأشهر كتبه « تاريخ الديانة المسيحية »
ومنه قسم فى تاريخ المسيح ترجم الى العربية وكان يرى ان
المسيح انسان راق لا اله فقام عليه رجال الدين وحرموه
من الكنيسة ولعنوا من يقرأ كتبه

رُوسُو : جان جاك روسو Rousseau كاتب وفيلسوف
فرنسى « ١٧١٢ — ١٧٧٨ » ربى فى أول أمره تربية خاملة
ولم يكن له من المال ما يكفيه ووظف كاتباً عند أحد
اصحاب الأملاك ثم ظهر نبوغه فى الكتابة والتفكير فانقطع
اليها وألف جملة كتب مفيدة أشهرها « أميل » فى التربية
رأى فيه ان التربية الصحيحة انما تكون بترك الوالد للطبيعة
تربيه وله كتاب « الاعترافات » ذكر فيه تاريخ حياته وله

مبادئ فى السياسة والآداب سامية كانت من عوامل الثورة الفرنسية

رِيد Reid توماس ريد فيلسوف انجليزى « ١٧١٠ — ١٧٩٦ » كان أستاذاً للفلسفة فى جامعة غلاسكو

زِينُون : Zeno فيلسوف يونانى « ٣٤٢ — ٢٧٠ ق م » مؤسس مذهب الرواقيين كان يعلم اصحابه فى رواق مزخرف فسمى اصحابه بالرواقيين وكانوا يرون ان الغاية ليست هى السعادة ولا تحصيل اللذة بل نيل الفضيلة

زِينوفُون Zenophon مؤرخ يونانى « ٤٣٠ — ٣٥٥ ق م »

سبنسر : هِرْبِرْتْ سبِنْسَرْ Spencer فيلسوف انجليزى « ١٨٢٠ — ١٩٠٣ » حاول أن يضع العلوم كلها فى نظام عام وكانت فلسفته مؤسسة على مذهب النشوء رقى الابحاث الاخلاقية والاجتماعية والتربية والف كتباً كثيرة مفيدة فى النفس والاخلاق والاجتماع والتربية والسياسة ويعد من أقطاب العلم الحديث

سبِينُوزا Spinoza فيلسوف هولاندى « ١٦٣٢ — ١٦٧٧ » ولد من أب يهودى برتغالى واضطهده اليهود

لما ظهر منه من الريبة فى تعاليم اليهودية فطردوه . درس فلسفة ديكارت ثم وضع طريقة جديدة خاصة به ونشر مذهب الحول وقد حكم فلاسفة القرن السابع عشر بكفره وكتب عدة مؤلفات فلسفية وسياسية

سُقْرَاط Socrates فيلسوف يونانى شهير «٤٦٩ — ٣٩٩ ق م » وجه البحث الفلسفى الى الانسان وكان قبله موجها الى العالم والاجرام السماوية ولذلك قيل أنه استنزل الفلسفة من السماء الى الأرض ويعد سقراط مؤسس علم الأخلاق لأنه أول من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس علمى وكان يدعى ان صوتاً داخلياً يرافقه على الدوام ويمنعه من ارتكاب بعض الأعمال ، اتهم بأنه يحتقر آلهة اليونان وبافساد الشبان بتعاليمه وحوكم وحكم عليه بالاعدام واسقى كأس السم فمات وهو استاذ افلاطون

سِلِى Sully فيلسوف انجليزى « ١٨٤٢ » وفى سنة ١٨٩٢ عين استاذا للفلسفة فى جامعة لندن الف كتباً كثيراً قيمة فى علم النفس

سُوفُوكليز Sophocles شاعر وروائى من اشهر الروائيين اليونانيين « ٤٩٥ — ٤٠٦ ق م » كتب اكثر

من مائة كتاب اكثرها روايات تمثيلية .

شافتسبرى : Shaftesbury فيلسوف فى الاخلاق انجليزى « ١٦٧١ — ١٧١٣ » كان يعارض نظرية هوبز التى ترجع كل عمل الى الاثرة وحب النفس بنظريته التى يقول فيها ان الانسان مفطور على حب الناس كما هو مفطور على حب نفسه والفضيلة انما هى بتوازن الغريزتين

شلر : Schiller شاعر وروائى المانى شهير ١٧٥٩ — ١٨٠٥

شلرماكر : Scheilermacher فيلسوف لاهوتى المانى «١٧٦٨ — ١٨٣٤» درس فلسفة افلاطون وسبينوزا وكانت له أبحاث فى نظرية المعرفة وفى الدين وكان يؤمن بالله وبالنصرانية

شلنج : Schelling فيلسوف المانى «١٧٧٥ — ١٨٥٤» كان استاذ الفلسفة فى مونيخ وبرلين وكانت آراؤه متأثرة بالفلسفة الافلاطونية الحديثة وفلسفة برونو وفى فلسفته ضرب من التصوف

شلى : Shelley شاعر انجليزى (١٧٩٢ — ١٨٢٢)

شعره مملوء بعواطف الحب للانسانية

شُوبِنْهَوَر: Schopenhauer فيلسوف ألمانى(١٧٨٨ — ١٨٦٠) مؤسس فلسفة التشاؤم كان يرى أن هذا العالم شر عالم يمكن أن يكون وأن مافيه من الآلام تفوق مافيه من اللذائذ وأن السعادة انمـا تكون بالزهد وقمع الشهوات وبالحياة الفكرية ، وأن الشيء الاساسى فينا هو الارادة

شيشرون: Cicero خطيب وسياسى رومانى(١٠٧ — ٤٣ق م) كان له الفضل فى اخراج الفلسفه اليونانية فى ثوب رومانى

فُجْت : Vogt عالم طبيعى (١٨١٧ — ١٨٩٥) تعلم فى « برن » وعين أستاذاً فى جامعة جسن ثم حرم المنصب لأنه كان من دعاة الثورة وكان ماديا محضاً

فِخْتَه : Fichte فيلسوف المانى «١٧٦٢ — ١٨١٤»
كان أستاذاً للفلسفة فى جامعة جينا بألمانيا واتهم بالزندقة

فِخْنَر : Fechner فيلسوف ألمانى (١٨٠١ — ١٨٨٧ م) كان أستاذاً للطبيعيات فى ليبزج وجه أكثر جهده فى البحث فى الكهرباء ونظريات اللون ثم ترك البحث فى هذا المرض اعتراه فى عينه واشتغل بالبحث فى العلاقة بين الفسيولوجيا والسيكولوجيا (علم وظائف الاعضاء والنفس)

وكتب بعض كتب فى الاعتقاد والنفس

فَنْدْت : Wundt فيلسوف ألمانى (١٨٣٢) كتب فى المنطق وعلم وظائف الأعضاء والنفس والأخلاق

• فِنْكَلمَان: Winckelmann فنان نقاد ألمانى (١٧١٧ — ١٧٦٨) كتب فى تاريخ الفن القديم

ڤُولْتير : Voltaire فيلسوف وشاعر فرنسى (١٦٩٤— ١٧٧٨) كتب روايات كثيرة وله شهرة فائقة فى الادب والروايات التمثيلية وكان لكتاباته أثر عظيم فى أفكار الاوربيين

•فيثاغورس : Pythagoras فيلسوف يونانى كان فى القرن السادس قبل الميلاد لم يعرف عن حياته الا القليل وتعاليمه التى نقلت الينا موضع شك ولكن مما لا شك فيه أنه كان يقول بتناسخ الارواح وينسب اليه القول بأن نهاية الاشياء كلها العدد

كَارْلَيْل : Karlyle توماس كارليل مؤرخ وأديب انجليزى (١٧٩٥ — ١٨٨١ م) ألف تآليف كثيرة نافعة أشهرها تاريخ الثورة الفرنسية وكتاب الابطال وفيه فصل عن محمد رسول الله كأحسن ما يكتب غربى عن شرقى تغير

به رأى الانجليز فى الرسول فبعد أن كان كثير منهم يهجوه جهلا أصبحوا يعترفون بفضله ونبوغه

كَانْت — عمانويل كانت : Immanuel Kant من أشهر فلاسفة الالمان (١٧٢٤ — ١٨٠٤) ومؤسس فلسفة النقد (أنظر ١٩٣) وكان أستاذ الفلسفة فى جامعة كونسبرج وكان يعيش عيشة منظمة أدق نظام حتى كان أهل قريته يضبطون ساعاتهم على خروجه من بيته — مر فى ثلاثة أطوار فكان فى أول أمره على مذهب ولف وليبنتز ثم تأثر بمذهب التجربيين الانجليزى ثم انتقل الى الفلسفة النقدية من سنة ١٧٧٠

كُمْت — أوجست كُمْت : Comte فيلسوف فرنسى (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) مؤسس الفلسفة الوضعية وهذا النوع من الفلسفة يرى ضرورة تنظيم معلومات الانسان عن العالم وعن الانسان وعن الجمعيــة وجعلها كلها مجموعاً يلائم بعضه بعضاً وأنه لا يصح تأسيس علم ما الا على المشاهدات الخارجية ولكمت اليد الطولى على علم الاجتماع وكان غرضه فى الحياة أن يكون مصلحاً للفكر ليصلح العمل

لاَمِتْرِى : Lamettrie عالم فرنسى فى علم وظائف الاعضاء (١٧٠٩ — ١٧٥١) كان مادياً يعد الانسان آلة .

من الآلات وأن النفس وظيفة المخ

لسنج : Lessing نقاد وروائى ألمانى (١٧٢٩ — ١٧٨١) قضى مدة فى برلين صحفياً ظهرت فيها مقدرته على النقد.

لوثر — مارتن لوثر : Martin luther زعيم المصلحين الدينيين وهو راهب ألمانى (١٤٨٣ — ١٥٤٦) وكان الاصلاح الذين يدعو اليه هو الرجوع الى الكتاب المقدس وحده ونبذ تقاليد الكنيسة وما وضعه الآباء من الشروح وأن للانسان الحق فى انتقاد ماتصدره الكنيسة وان كل أنسان مسؤل أمام الله وليس للآباء ولا للبابا سلطة العفو عن الذنوب والتطهير من الآثام .

لوتز : Lotze فيلسوف ألمانى(١٨١٧—١٨٨١) كان استاذاً للفلسفة فى ليبزج سنة ١٨٤٢ وصرف جزءاً كبيراً من حياته للبحث فى علاقة علم النفس بعلم الحياة وله ابحاث اخلاقية

لوك : جون لوك Löcke فيلسوف انجليزى (١٦٣٢— ١٧٠٤) كان متأثراً بتعاليم ديكارت وكانت ابحاثه الفلسفية متضمنة لاهوتاً وسياسة واقتصاداً وتربية الف رسالة سماها « العقل البشرى » كان يرى فيها ان العقل يجب ان يترك حراً لينقد اى شيء ويجب الا يوضع له اى حد بواسطة

اية سلطة وكان تجريبياً يرى ان مصدر معلوماتنا انما هو التجربة وبحث فى سلطة الحكومة ورأى ضرورة تنازل الناس عن بعض حريتهم للسلطة العامة وعلى الملك المحافظة على حقوق الناس فاذا لم يحافظ فلا حق له فى الملك

لَيبنتز : Leibniz فيلسوف المانى (١٦٤٦ — ١٧١٦) درس الفلسفة والرياضيات والقانون ثم اشتغل بالامور السياسية واخترع الآلة العادة وله مذهب فى الفلسفة وفى تكوين العالم شرح فى ص ١٤٨ وكان له فضل على العلماء الذين اتوا بعده بطريقته العلمية وبتوجيه النظر الى علم النفس

ليُوسِبُّس : Leucippus كان نحو ٥٠٠ ق م فيلسوف يونانى مؤسس مذهب الجوهر الفرد وممهد السبيل فى ذلك لديمقريطس

لُيُوكرِيتُوسْ كاروس : Lucretius Carus شاعر رومانى (٩٩ — ٥٥ ق م) قد يعد من اتباع ابيقور

مَكْسمُلَر : Max Muller لغوى المانى انجليزى « ١٨١٣ — ١٩٠٠ » كان مستشرقا درس اللغة السنسكريتية وكان استاذ اللغات الحديثة فى اكسفورد ونشر كتباً كثيرة فى علم اللغة

مولشت : Moleschott عالم فى علم وظائف الاعضاء ولد فى هولندا « ١٨٢٢ — ١٨٩٣ » وكان ماديا فى تعاليمه وكتبه

مونتسكيو : Montesquieu مؤرخ واجتماعى وفيلسوف فرنسى « ١٦٨٩— ١٧٥٥ » الف كتابه المشهور فى عظمة الدولة الرومانية وسقوطها

ميل : جون ستوارت ميل John Stuart Mill فيلسوف انجليزى « ١٨٠٦ — ١٨٧٣ » كان متأثرا بتعاليم هيوم واوجست كمت كتب فى المنطق وفى الاقتصاد السياسى وفى السياسة وكتب رسالة فى الحرية ورسالة فى مذهب المنفعة الفهاسنة ١٨٦٣ وهو من اكبر مؤسسى مذهب المنفعة والداعين اليه

نيتشه : فردريك نيتشه Neizsche فيلسوف المانى « ١٨٤٤ — ١٩٠٠ » كان اديباً وكاتباً فى الاخلاق وكان يؤمن بمذهب النشوء والارتقاء وكان من آرائه فى الاخلاق ان آراءنا فى الفضائل والواجبات يجب ان تنقح من آن لآخر على حسب تغير الاحوال المحيطة بالناس وقال ان الفضائل النصرانيـة كالوداعة والتواضع والاحسان قومت

بأ كثر مما تستحق ولقب الاخلاقية النصرانية بأخلاقية العبيد وقال يجب أن تعوض هذه الاخلاقية بأخلاقية السادة وهذه الاخلاقية العالية يجب أن تكون فوق القانون، والمثل الاعلى للانسان عنده انسان له الحرية التامة فى الكفاح ليبقى ، يبحث عن لذته وما به قوته ولا يعرف الشفقة

نيُوتْن: اسحاق نيوتن Neuton فيلسوف انجليزى فى الطبيعيات (١٦٤٢ — ١٧٢٧) له استكشافات كثيرة فى الطبيعة اشهرها قانون الجذب العام (١٦٦٥)

هَتْشِسُون: Hutcheson عالم انجليزى لا هوتى واخلاقى (١٦٩٤ — ١٧٤٦) وكان استاذ علم الاخلاق فى جامعة جلاسكو وكان متبعا للوك فى كثير من نظرياته ومعارضا لهوبز

هِجِلْ : Hegel هو جورج وليلم فيدريك هجل فيلسوف جرمانى (١٧٧٠ — ١٨٣١) كان من الفلاسفة المثاليين وكان حامل لواء الفلاسفة فى عصره فى المانيا

هَرْتمانْ Hartman فيلسوف المانى (١٨٤٢ — ١٩٠٦) كان ينظر الى العالم بعين السخط ولكنه يرى انه

بالتقدم الاجتماعى ربما نال الناس بعض السعادة

هِرِدَرْ Herder مؤلف المانى (١٧٤٤ — ١٨٠٣) كان له أثر في ترقية علم الجمال وكان صديقاً لجوتيه

هِرَقْلِيطُسْ Heraclitus فيلسوف يونانى ولد فى افسوس باسيا الصغرى نبغ حوالى سنة ٥٠٠ ق م ويلقب بالفيلسوف الباكى كان يبكيه ما يراه من شقاء الناس على العكس من ديمقريطس ويرى النار أساس عنصر الموجودات

هُلْبَاخْ أَوْ هُلْبكْ Holback هو بارون هلبك فيلسوف فرنسى (١٧٢٣ — ١٧٨٩) كان ملحدا وكان يتهم النصرانية بأنها منبع كل مرض

هَكْسْلى Huxley عالم من أكبر علماء الانجليز فى علم الحياة والحيوان « ١٨٣٥ — ١٨٩٥ » وقد كتب فى « نظرية النشوء وعلم الاخلاق »

هُوبْز Hobbes : توماس هوبز فيلسوف انجليزى (١٥٨٨ — ١٧٦٩) اشتهر بابحاثه السياسية ، ونظريته فى السياسية مذكورة فى صفحة ٧١ من الكتاب وكذلك بحث فى الاخلاق وعد أساس الاخلاق المصلحة الشخصية

هُوجارْث : وليامْ هوجارث Hogarth (١٦٩٧ — ١٧٢٤) يعد من أكبر فنانى الانجليزى

هُوجُوجْر وتيَس Hugo Grotius (١٥٨٢ — ١٦٨٥) فقيه هولاندى كتب فى القانون الدولى

هيوم : دافيد أوْ دَاود هيوم David Hume مؤرخ وفيلسوف انجليزى (١٧١١ — ١٧٧٦) وكانت فلسفته (تجريبية) أى أنه كان يقول ان كل معارفنا انما نحصلها من التجربة انظر ص ١٨٧ و ص ١٨٩ من الكتاب

هوم home : جون هوم شاعر انجليزى (١٧٢٢ — ١٨٠٨)

هَيبرْج Heiberg شاعردانيمرقى (١٧٩١ — ١٨٦٠)

هيكِل Haeckel ارنست هيكل (١٨٣٤ —) عالم المانى مشهور له ابحاث هامة فى علم الحياة

هَينْى Heine شاعر المـانى يمثل العواطف « ١٧٩٩ — ١٨٥٦ »

والاّس Wallace سائح وطبيعى انجليزى (١٨٢٢

) صرف حياته فى البحث فى الحيوان والنبات وطبقات الارض وقرر نظرية الانتخاب الطبيعي و بقاء الاصلح.

ولف Wolff فيلسوف ورياضى المانى (١٦٧٩ — ١٧٥٤) نظم تعاليم ليبينتز وعدلها

يوليان الصابى Gulian the apostate امبراطور رومانى ٣٣١ الى ٣٦٣م اعلن حرية التدين وكان هو نفسه يفضل الوثنية على النصرانية

« تم »

الاصطلاحات الانجليزية ومقابلها من العربية

Aesthetics علم الجمال
Altruism مذهب الايثار
analitycal methob
طريقة التحليل
Anthropology علم الانسان
art فن
artist فنان
atomism مذهب الجوهر الفرد
autonomous القانون الذاتى

Categorical imperative
الامر المطلق
Chaos العماء
Common-sense
الذوق الفطرى أو الذوق السليم
Conduct سلوك
Contradiction, law of-
قانون التناقض (فى المنطق)
Contrat Social
نظرية العقد الاجتماعى

Cosmology علم الكون

Criticism مذهب النقد

Cynic School الكلبيون

cyrenaic school القورينائيون

custom العرف

deductive طريقة الاستنتاج

deism, Rationalism العقليون

determanism مذهب الجبر

dogmatism مذهب اليقين

dualism الاثنينية

egotism مذهب الاثرة

Eleates الايليون

end الغاية (فى الاخلاق)

Eudaemonism مذهب السعادة

Empiricism مذهب التجريبين

Epicureanism الابيقوريون

Epistemology نظرية المعرفة

Ethics علم الأخلاق

Evolution مذهب النشوء والارتقاء

Excluded middle; law of قانون الامتناع

free-will حرية الارادة

Gnosticism الغنوسطية أو الادرية

Hedonism مذهب السعادة

Humanism مذهب الانسانية

ideal المثل الاعلى

idealism مذهب الكمال (فى علم الجمال)

idealism مذهب المثال (فى نظرية المعرفة)

identity, law of — قانون الذاتية

indetermanism مذهب الاختيار

inductive method مذهب الاستقراء

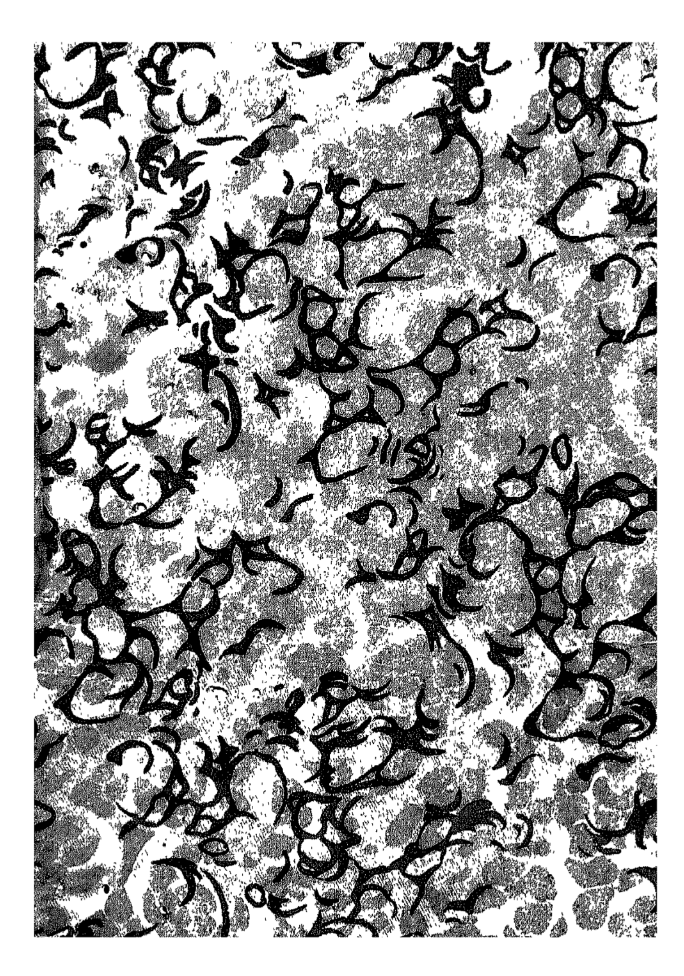
intellectualism الذهنيون

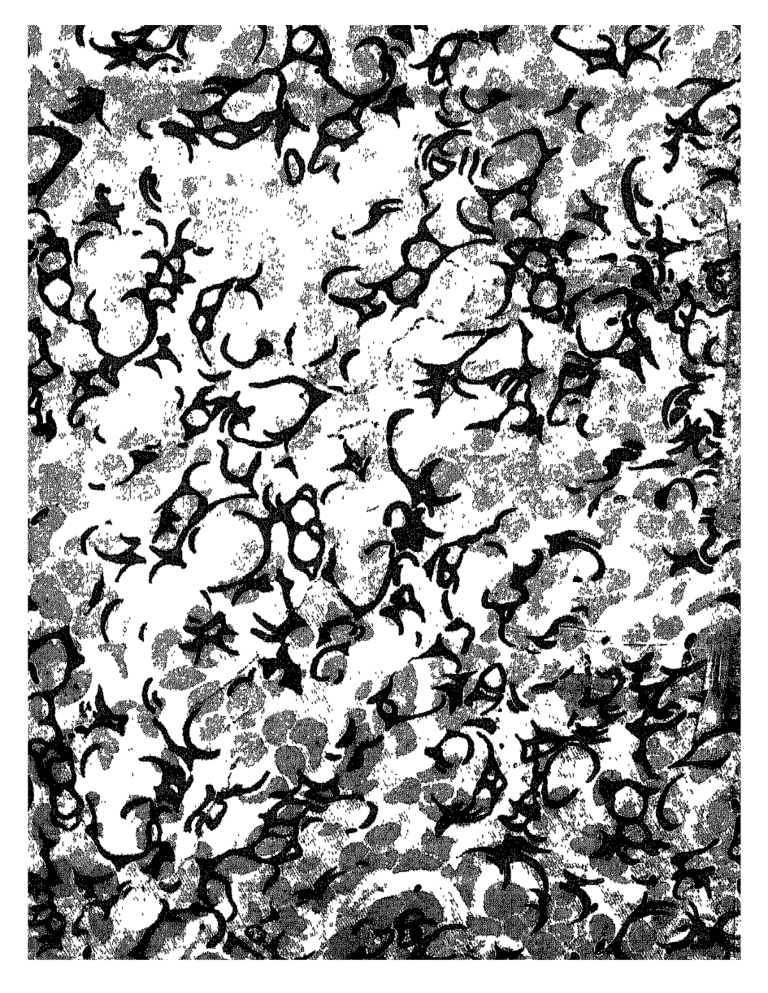
intuitionism مذهب اللقانة

Ludicrous فكه

Materialism مذهب المادية

Megarian School مذهب الميغارية
Metaphysics مابعد الطبيعة
Monad الذرة الروحية
Monism الواحدية
Monetheism مذهب الموحدين
Moral action عمل أخلاق
Morality أخلاقية
Moral sense الشعور الاخلاق
Natural rights الحقوق الطبيعية
New platonism الافلاطونية الحديثة
Occasionalism مذهب الاتفاقيين
pantheism مذهب الحلول
perception الادراك بالحس
peripatetics المشاءون
polytheism مذهب الاشراك
positivism الفلسفة الوضعية
premises القضايا(فى المنطق)
psychology علم النفس
purpose الغرض(فى الاخلاق)
Rationalism العقليون
Realism مذهب الواقع
Reformation الاصلاح الدينى
Renaissance النهضة
scepticism مذهب الشك
sensationalism الحاسيون
sociology علم الاجتماع
sophists السوفسطائية
spiritualism روحانيون
stoics الرواقيون
sublime جليل
summum bonum غاية الغايات (فى الاخلاق)
Theism مذهب المؤلهة
theologico cosmoligical problem قضية العالم الدينية
Utilitarianism مذهب المنفعة






Bibliotheca Alexandrina
04432162